روايات احلام

كانت له

www.elromancia.com

مرمورية

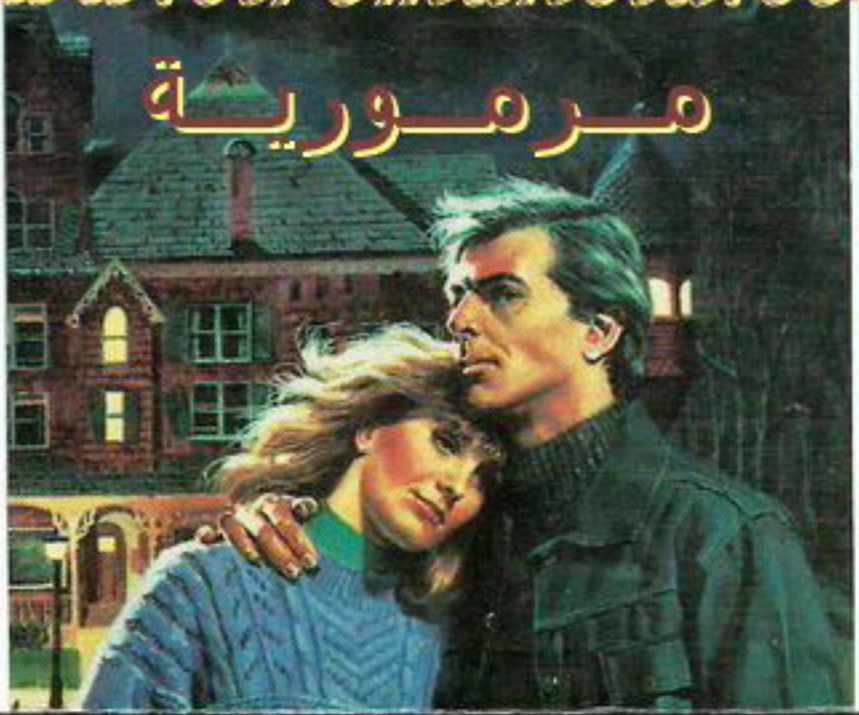

روايات احلام

كانت له

عاشت ايزوبيل خمس سنوات من حياتها في قلب الموت!! وهل هناك موت أصعب من فقدان الذاكرة؟... ثم رأت ضوءاً وانتعش الأمل في قلبها ولكنه سرعان ما تلاشى...

امتدت إليها يد في عتمة ذاكرتها: يد اليوت ريتشاردسون! هل هي يد عدو أو صديق؟ هل سينقذها اليوت أم يعيدها إلى شفير الضياع؟

قالت له: «هذا الرجل يسكنني... يسكن أعماق كياني... هذا ما أشعر به».

- يبدو لي هذا مضحكاً... امرأة فتية جميلة يسكنها رجل ميت.

- أنت لا تصدقني.

لا... إنه لا يصدقها... وما عليها إلا أن تحفر هذا الجدار بأظافرها بحثاً عن ضوء أو أن تدع الماضي مدفوناً حيث هو إلى الأبد!!...

١ ـ الضوء الهارب

حدث ذلك لأول مرة وهي في السيارة، كان الوقت مساءً وكان ضوء النهار قد بدأ بالانحسار. في المرة الثانية حصل ذلك في السوبرماركت وفي وضح النهار، وفي المرة الثالثة خلال حفلة راقصة. عندئذ قررت ايزوبيل إخبار زوج والدتها بما حصل معها.

في المرة الأولى، كانت ايزوبيل تقود سيارتها وتحاول تأخير موعد وصولها إلى المنزل لأنها كالعادة تخاف من العودة. راحت تقود السيارة ببطء وعندما مرت بها سيارة سوداء مسرعة توقفت على أحد التقاطعات. كانت آنذاك تفكر في المهمة التي كلفها بها زوج أمها لتتأكد أنها لم تنس أي شيء، فإن نسيت شيئاً تعكر مزاجه طوال السهرة. فجأة أبصرت أضواء السيارة الأخرى التي مرت بها بسرعة، وشاهدت العلامة البيضاء إلى جانب الطريق وشاهدت الأشجار والخندق عن شمالها، عندئذ ومن دون أن تدري فاض فكرها بالأضواء. لم تر أي شيء أو أي صورة، لم تتذكر شيئاً، لكنها شعرت بالخوف الشديد وأخذت ترتجف. اضطرت إلى التوقف ريثما يتلاشى عنها ذلك الشعور ثم عادت تقود السيارة باتجاه المنزل.

في المرة الثانية حدث ذلك بعد أسبوع في السوبرماركت.

كانت تشتري الأطعمة لزوج أمها لأنه لا يثق بمدبّرة المنزل. راحت تدفع العربة أمامها وهي تنظر إلى الرفوف. كان ذلك يوم الاثنين، لم يكن المخزن مزدحماً، اتجهت نحو جناح الأطعمة فشاهدت في آخر الجهة المقابلة رجلاً يرتدي سترة سوداء، شاهدته للحظة فقط. وللمرة الثانية تكرر ذلك:

ملأت الأضواء عينيها وشعرت بالخوف مرة أخرى.

هذه المرة كانت أشد وطأة من المرة السابقة، فعندما ومضت الأضواء في عينيها تمايلت قليلاً فضغطت بيدها على عينيها واتكأت إلى أحد الرفوف. في هذه اللحظة مرت بها امرأة تتبضع فوضعت يدها بلطف على ذراعها وسألتها: هل أنت بخير حبيبتي؟

فتحت ايزوبيل عينيها، كان الرجل قد رحل، حركت رأسها وأجابتها:

ـ شكراً، أنا بخير، شعرت فقط بدوار بسيط، هذا كل شيء.

ابتسمت المرأة وقالت لها: لا تلومي نفسك يا حبيبتي، الجو فاسد في الداخل.

في المرة الثالثة، اختلف الأمر عن السابق. كانت ايزوبيل في المنزل تتشوق لحضور حفلة راقصة ستقام في القرية المجاورة. في بادىء الأمر، تردد زوج أمها بالذهاب، وأخيراً وافق شرط ألاّ يمكثوا هناك طويلاً. لم تكن ايزوبيل تخرج من المنزل إلا قليلاً فمنذ خمس سنوات لم تذهب إلى حفلة راقصة. لم ترقص إلا قليلاً نزولاً عند تحذير زوج أمها. خلال إحدى الرقصات، أخذ الشاب الذي يراقصها ينعم النظر إلى وجهها، كان شعرها الأسود الطويل مربوطاً من دون إحكام فوق كتفيها ولأن ذلك الشاب لم يستطع ضبط أعصابه، أمسك شعرها بيده فتساقطت خصلة منه على كتفيها، أراد أن يعيدها إلى مكانها فلامست أنامله عنقها.

رفعت ايزوبيل نظرها إليه، فأعمتها الأضواء هذه المرة وطمست وجهها، ولكنها لم تشعر بالخوف بل أحست بفرحة غريبة عارمة كالضوء الذي بهر عينيها. راح الشاب ينظر إليها بقلق لأنه يعرف كغيره من أهل القرية أنها مريضة وقد أحدث مجيئها إلى الحفلة، ارتياحاً وتعجباً لدى الحاضرين.

سألها: هل أنتِ على ما يرام؟

ـ أجل، أنا بخير، أشعر فقط بضيق في التنفس. سأجلس حالما تنتهي

الرقصة.

أعادها الشاب إلى مقعدها فجلست وهي تحاول التمسك بهذا الشعور والاحتفاظ به، ولكنه سرعان ما اختفى فشعرت بحسرة عميقة.

كان زوج أمها يراقبها بانتباه طوال الوقت، فلما لاحظ الارتباك على محياها طلب منها العودة إلى المنزل فوافقت وأطاعته.

في طريق العودة، ظلت ايزوبيل صامتة وهي جالسة في السيارة إلى جانب زوج أمها. عندما نظرت إلى الخارج أحست بشعور ممزوج بالخيبة والنصر.

سبق أن قال لها زوج أمها إنه لن يحدث ذلك أبداً ولكنه كان مخطئاً فذاكرتها أخذت تعود وبدأت الستائر ترتفع.

في اليوم التالي، وقفت في غرفتها تنظر في المرآة. لقد ورثت نظرات أمها، فالذين يعرفونها يقولون لها إن الشبه بينهما غريب جداً. كان شعرها كثيفاً، رائعاً، يشكّل هالة من الظل حول وجهها الشاحب، وكانت عيناها واسعتين كثيراً بالنسبة لوجهها، لونهما أسود على أزرق. كان والدها يؤكد أن لونهما أزرق داكن، أما أمها فكانت تقول لها بصورة رومانسية إن عينيها كلون البحر في الليل.

بدت عنقها نحيلة وفمها واسعاً وبشرتها شاحبة ربما لأن المرآة قديمة مرقّطة. بدت في انعكاس المرآة غامضة كالشبح ولكنها فعلاً تشعر وكأنها شبح. كم مرة حاولت أن تعرف أي فتاة كانت فيما مضى، ففي هذه المرأة التي هي الآن لم تجد نفسها قط. ابتعدت عن المرآة والحسرة في قلبها. ايزوبيل الماضي ذهبت وضاعت، أما الآن فلولا ذلك الضوء الغريب، أو بمعنى آخر لولا هذا الباب المقفل الذي انفتح فجأة أمامها لظنّت أن ايزوبيل الماضية ضاعت إلى الأبد.

نظرت بنفاد صبر من النافذة وراحت تتأمل البساتين في الخارج. إنه شهر كانون الثاني، الطقس بارد وقارس، والبساتين التي كانت رائعة أيام الصيف بدت حزينة الآن. شعرت ايزوبيل بالحسرة تلفّ قلبها لأنها تشعر

أحياناً بأن هذا المنزل أشبه بالسجن. لقد توجّه زوج أمها بعد الحادث إلى هنا، إلى هذا الريف الذي لم تعش فيه ايزوبيل من قبل، والذي لا تعرف فيه أحداً. وحسب قوله إنه انتقل إلى هذا المكان من أجل سلامتها لأنها تحتاج إلى الهواء المنعش وإلى الراحة، لكن إلى متى؟ أرادت ايزوبيل أحياناً الصراخ بوجهه فقد مضى على وجودها هنا خمس سنوات بدت لها كالأبدية.

في بادىء الأمر، كان مرضها هو سبب وجودهم هنا، أما الآن فأصبح مرضه السبب. نظرت إلى ساعتها، إنها الرابعة. في مثل هذا الوقت من كل يوم تذهب إلى غرفته لتتناول الشاي معه بعد أن يستفيق من قيلولته، لكنها تشعر دائماً بعدم الرغبة في الذهاب وهذا ما يشعرها بالذنب. إنه مريض لذا لا تقدر أن تلومه على سرعة غضبه وتذمّره، فقد قالت لها الممرضة إنه يتألم كثيراً رغم المسكّنات التي يتناولها. كان دائماً طيباً معها، حضنها وعاملها كابنته بوبي بالتساوي، كانت ترتدي الألبسة الجميلة ذاتها وتنام في غرفة النوم نفسها وكان ينفق عليها بسخاء. بعد موت والدتها، وعندما رفض والدها أن تنتقل إليه قال لها وكانت آنذاك في الثانية عشرة من عمرها: تبقين هنا مع بوبي ومعي، إنه منزلك الآن وأنا والدك.

كان ادوارد سانت ايوين رجلاً صارماً. هذه هي الحقيقة. فهي تعيش معه منذ الثامنة أما والدها الحقيقي فلم تره إلا نادراً وهي لا تكاد تتذكره. قدم لها ادوارد كل شيء. إنها ممتنة له، لكنها لا تقدر أن تعيش على هذا النحو، بغضّ النظر عن شعورها نحوه. الآن، وهي تصعد الدرج إلى غرفته شعرت بأنها تخاف أن تخبره بتلك المشاعر التي تحس بها. تمنت لو أن بوبي موجودة لتخبرها بما تشعر به حيال هذا الحمل الثقيل.

وصلت إلى غرفة زوج أمها فالتقت عيناها بنظرات ممرضته «برنيس» التي كانت في ربيعها الثالث والعشرين. هي من جيل ايزوبيل تقريباً، قوية البنية، وقد تعايشت مع انفعالات ادوارد وثورات غضبه أفضل من الممرضات السابقات. إنها هنا منذ ستة أشهر.

سألتها ايزوبيل عن حالته فأجابتها الممرضة:

ـ ليس سيئاً جداً، ينام أفضل من السابق ومزاجه أحسن. يبدو أن حبوب الدواء الجديدة تنفعه فضغط دمه ليس كالماضي. إنه يتحسن، لكنه قد يرحل فجأة إلى الأبد فما زال صدره يؤلمه. أعتقد أن من الأفضل أن تعود الآنسة سانت ايوين في أقرب وقت إلى المنزل، فهي لم تأتِ في عطلة الميلاد. ليس باستطاعتكِ تحمل المسؤولية بمفردك.

قالت ايزوبيل وقلبها يكاد ينفطر من الحزن: حاولت مراراً برنيس.

يجب عدم إزعاج زوج أمها بإخباره عن الأضواء الغريبة التي تلاحظها، قال لها في المرة الأخيرة عندما سألته عن الحادث وعن يوليوس.

ـ قلبي لا يتحمل ذلك، لماذا تسألين يا ايزوبيل؟ مرّ على الحادث خمس سنوات، لا تفاتحيني بهذا الموضوع لأنك تزيدين الأمور سوءاً.

حدث ذلك بعد عودتها من السوبرماركت، باستطاعتها أن تتذكر صوت ادوارد وهو غاضب ومنفعل، وهي الآن تخاف من إعادة هذا المشهد لذلك تقبلت غصباً عنها هذا الانزعاج وقالت لبرنيس: تعرف بوبي جيداً وضع أبيها، لكنها مشغولة كثيراً، لا يمكنها ترك عملها. قالت إنها ستحضر عندما تنهي عرض الأزياء الذي تشترك فيه في سويسرا وهي مضطرة أيضاً للسفر إلى نيويورك.

أقفلت برنيس فمها بإحكام وهزّت رأسها.. لم تكن برنيس تحب بوبي..

ـ حسناً، أعتقد أن عليك إعلامها بالأمر مرة ثانية، أعني إذا حصل شيء لوالدها وهي غائبة فستلوم دائماً نفسها، أليس كذلك؟

أجابتها ايزوبيل: «لا أدري إن كانت ستلوم نفسها. المشكلة مع بوبي أنه لا يمكن الاتكال عليها بأي شيء. إنها منهمكة كثيراً بعملها فهي لا تفكر ولا تهتم بمرض والدها، على كلٍّ سأتصل بها هذه الليلة».

بعد ساعة، حضرت بوبي إلى المنزل. كانت قد أنهت عرضها في سويسرا وهي حالياً تهم بالسفر إلى نيويورك وبعدها ستذهب إلى باربادوس، لكنها ستمكث يومين في المنزل. فكرت ايزوبيل أن بوبي قد بذلت جهداً كبيراً

لتتمكّن من رؤية والدها لفترة وجيزة قبل استئناف سفرها، فهي لا تستقر أبداً في مكان واحد.

لدى وصول بوبي، انقلب المنزل كالعادة رأساً على عقب فمديرة المنزل السيدة سبنسر التي تحبها كثيراً، ملأت المنزل بالزهور. ها هي الآن في المطبخ، تحضر الكعك والحلويات لكن بوبي كعادتها لن تلمس شيئاً من كل تلك الأطعمة فهي نحيلة كالخيال، ظلت بوبي طوال النهار منحرفة المزاج.

عندما دخلت من الباب عبق المنزل بسحابة من العطر. كان شعرها الأسود قصيراً جداً وشفتاها قرمزيتين لامعتين، وكانت ترتدي ثياباً جميلة. حيّتها ايزوبيل بحياء لأنها تشعر أكثر وأكثر أنها خرقاء أمام بوبي التي تنضح بالحيوية والإثارة، شعرت فجأة أن تلك اللحظات الجديدة المفعمة بالحيوية والتي تستعيد خلالها بعض ذكرياتها، تبدو بلا قيمة لذا لم تفصح عنها ولكن هذا لم يرحها بل أشعرها بانقباض في الصدر.

عندما أصبحت بوبي قريبة منها أرسلت لها قبلة روتينية وسألتها وهي تتذمّر كعادتها: كيف حال العجوز القذر؟ جلبت له بعض الشوكولا السويسرية الصنع. سيحبها من غير شك. إنه مخيف وجشع.

توقفت فجأة لتلقي نظرة فاحصة على ايزوبيل من رأسها إلى أخمص قدميها. قالت لها: «حبيبتي! تبدين رائعة، أنتِ أفضل بكثير من السابق، ثم..».

ضغطت على شفتيها كأنها رأت شيئاً لم يرق لها كلياً وتابعت:

- إنك جميلة جداً، لكن ما هذه الثياب الرثّة التي ترتدينها؟ سأتكلم مع والدي، يجب أن تشتري بعض الألبسة الجديدة.

بدت الآن كأنها في برجها العالي، كانت بوبي تحب أن تلعب دور سيدة القصر، فكل الموظفين عند والدها معجبون بأناقتها وسحرها.. ثم أعلنت أنها ستشرب الشاي مع أبيها بمفردها وأنه من غير الضروري أن تنضم ايزوبيل إليهما. خسرت ايزوبيل مناسبة وفرصة جديدة لتتكلم عن مشاعرها وما يحدث لها، فأحست ببعض الإحباط. لم تظهر بوبي حتى الساعة السابعة

تقريباً، حيث أعلنت أنها ستتناول طعام العشاء مع شقيقتها. في الساعة السابعة والنصف تقريباً جاءت بوبي إلى المكتبة، حيث كانت ايزوبيل تقرأ.

بدت بوبي في مزاج سيء.. تقدمت بسرعة نحو الأريكة وارتمت عليها وقالت: هل تعرفين ايزوبيل. لا أدري كيف تطيقين والدي؟

نظرت إليها ايزوبيل بقلق وسألتها: هل يشعر بأي سوء؟ كان ينتظر قدومك. ألا تدرين أن الإثارة تضره وتجعله سريع الانفعال والحساسية؟

أشعلت بوبي سيجارة وسحبت نفساً عميقاً وقالت: سريع الانفعال والحساسية؟ أهذا ما تسمّينه؟ بصراحة لا أدري إذا كان وجودي يسرّه. قطعت كل هذه المسافة وأفسدت برنامج عملي لآتي إلى هنا ولكن رؤيته بالحقيقة تضايقني.

نظرت إلى ايزوبيل وضحكت ثم قالت لها محذرة: لاحظت الاعتراض على محيّاك سأقطع عليك الكلام قبل أن تبدئي. إنك تقلقين عليه كثيراً، ولكنه بنظري قوي كالحصان وهو ربما أفضل حالاً منا. فنصف مرضه وهمٌ، والنصف الآخر تظاهر به ليصل إلى مراده وليرعب الذين من حوله، وخاصة أنتِ. فعل ذلك سابقاً مع أمك إذا كنت تتذكرين. وليس مع أمي التي كانت تعرف كيف تتخلص من سيطرته. ولكنني راقبته مع أمك، بالحقيقة لقد أذاقها المرّ واستنزف حياتها. يجب أن تتذكري ذلك فها أنت تسمحين له الآن أن يفعل بك الشيء ذاته.

هزت ايزوبيل رأسها وقالت بصبر: أعلم كل شيء، وأعرف ما حدث لوالدتي، لكن... ربما كان هناك سبب لتصرفه.

حدقت بوبي إلى ايزوبيل بدقة وقالت لها: للأسف لم يكن هناك أي شيء، فالمسكينة كادت تفقد عقلها وأنا أكيدة أنه أراد ذلك. كان والدي غيوراً بشكل شائن خاصة عندما اكتشف أمرها، هل تتذكرين؟ أنا آسفة!

ابتسمت ايزوبيل وقالت لها: أتذكر ذلك، كما أتذكر أشياء كثيرة عن طفولتنا ولكن المرحلة الأخيرة هي الغامضة والموصدة أمامي. أتذكر ذلك الرجل... كان طويل القامة، شعره أسود. أتذكره أنيقاً جداً، وأذكر كيف

كان ينظر إلى أمي وكيف كانت هي بدورها تنظر إليه؟ أذكر كذلك أنها راحت تصرخ وتبكي مرة، وبعد ذلك لم نرهما قط أبداً معاً... أجل أتذكر كل ذلك. كان والد يوليوس أليس كذلك؟

سحبت بوبي نفساً عميقاً من سيجارتها وراحت تحدّق إلى ايزوبيل بعمق وقالت ببطء: حسناً، حسناً، حسناً... إنها المرة الأولى التي أسمعك فيها تذكرين هذا الاسم. ما الذي دفعك إلى ذكره؟

ـ لا شيء لكنني أتساءل عنه أحياناً، هذا كل شيء.

رمت بوبي السيجارة وقالت لها بنفاد صبر: حسناً، بصراحة ايزوبيل أخبرناكِ مراراً وكل الأطباء أخبروا الوالد أن عليك أن تضعي كل ذلك خارج تفكيرك، فهذا أفضل لكِ.

أجابتها ايزوبيل: هذا لا يؤلمني كما تلاحظين، أستطيع أن أردد اسمه بكل أمان وسلامة. لم أعد أشعر بذلك الكابوس كما في السنين الماضية، أنا لا أشعر بأي ألم أو بأي صدمة.

كان صوتها هادئاً وعيناها تحدقان إلى بوبي: أستغرب لماذا يحاول كل شخص جعل ذلك سراً بالنسبة لي؟

ردّت:

ـ لا أحد يجعل ذلك سراً، أخبرناك بما حدث عدة مرات. كان هناك حفلة وكنتِ في سيارته. ولأنه كان ثملاً تعرضتما لحادث وانزلقتِ على أثره إلى الخارج فارتطم رأسك بشجرة، وعلى بعد ميل تحت الطريق حصل ليوليوس ما يحدث عادة لأولئك الشباب الذين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يسكروا حتى الثمالة، ويقودوا سياراتهم. هذه هي نهاية القصة. لا أدري لماذا تريدين الآن إعادة الماضي.

عادت بوبي إلى كرسيها وأشعلت سيجارة أخرى.

ثم رفعت رأسها فجأة وقالت لها: أنا بحاجة إلى بعض المال ولكن الحيوان العجوز لن يعطيني شيئاً.

ـ مال؟!

حدّقت ايزوبيل إلى بوبي وقد تملّكها العجب.

ـ أجل مال. هذا هراء، فلدى الوالد الكثير من المال وأنا حتى الآن لم أحصل على أي فلس منه.

ـ لا شيء! لكنني أعتقد...

سحبت بوبي نفساً عميقاً من سيجارتها وقاطعتها: حسناً! ايزوبيل، لا أستطيع انتظار مرور الأيام والسنين لأحصل على إرثي، أنا في الرابعة والعشرين من عمري وسأصبح عجوزاً.

ـ لا تكوني سخيفة بوبي! أنتِ جميلة بل أجمل بكثير من أي وقت مضى. أنتِ لا تتوقفين عن العمل، والعروض تلاحقك دائماً.

تفاجأت ايزوبيل عندما رأت لون ابنة عمها الجميلة يمتقع فجأة والدموع تترقرق في عينيها، ثم رأتها تخفي وجهها بين يديها. فهبت واقفة وراحت تمشي في الغرفة. وقبل أن تقول لها ايزوبيل أي شيء مسحت الدموع عن وجنتيها وقالت وصوتها يكاد يختنق: لدينا أمور مشتركة ايزوبيل أكثر مما تظنين، فحياتكِ انهارت بسبب رجل كاذب وحياتي على وشك الانهيار بسبب رجل دنيء آخر، والآن..

تابعت بصوت مخيف، حاد، وحزين: هذا الموجود في الطابق العلوي لن يعطيني درهماً واحداً. قلت له وطلبت منه، ليته يموت..

ثم عادت تجهش بالبكاء.. جلست ايزوبيل إلى جانبها وحاولت مواساتها حتى كفّت عن البكاء ثم أعطتها محرمة لتمسح دموعها ولتجفف وجهها.. كانت ايزوبيل تراقبها فهي تعرفها خير معرفة. فبعد زوال العاصفة، ستهدأ بوبي وتشعر بتحسن سحري.

قالت لها: «تعالي الآن وأخبريني ما بك؟».

ـ ستصدمين.

ـ لا أعتقد ذلك، إذا عوملت كطفلة فهذا لا يعني أنني طفلة، أخبريني بوبي.

ـ حسناً، المسألة بسيطة ومحزنة... حدث ذلك منذ خمس سنوات، في

السنة التي تعرضتِ فيها أنت للحادث. كنت غبية.. آنذاك لم أكن نحيلة، وكنت أجهل ترتيب شعري ووجهي، ذهبت إلى تلك الوكالة لأجد عملاً كعارضة أزياء فأعطوني عنوان مصوّر يُدعى ليام طوماس وهو رجل مشهور قالوا لي أنه يجب أن يقوم بتصويري في أوضاع مختلفة لكي أتمكن من العمل. هكذا ذهبت إلى الاستوديو، وجدته شاباً جذاباً ومقنعاً جداً.

توقفت لحظة ثم أضافت: «المهم أنه أقنعني بنزع ثيابي، ثم راح يلتقط لي عدة صور بأوضاع مختلفة. في مطلق الأحوال، تركته بعد ذلك ولم أره قط. ومع الوقت نسيت كل شيء عن تلك الصور. اعتمدت حمية في الطعام، وخسرت بعضاً من وزني، ثم التقطت لي صوراً أخرى فوافقت الوكالة أن أعمل معها. فجأة، انهالت علي العروض من كل حدب وصوب.

توقفت لحظة، فنظرت إليها ايزوبيل وقاطعتها: والآن اتصلَ بكِ ليواجهكِ بتلك الصور التي التقطها لك؟

- أجل، هذا ما فعله. فهو يعرف الآن أنني أتقاضى راتباً جيداً. في الشهر السابق وقّع وكيلي عقداً جديداً مع شركة أميركية كبيرة متخصصة بمستحضرات التجميل وقد أنزل صوري في كل إعلاناته التجارية وفي التلفزيون أيضاً. سأتلقى عن هذا مبلغاً محترماً من المال كما نص عليه عقد العمل واتصل بي ليام هاتفياً في النهار التالي وطلب مني عشرة آلاف استرليني مُدعياً أنه إذا باع صوري لإحدى الجرائد المتخصصة حصل على هذا المبلغ، وقال لي إذا نُشرت تلك الصور فستكون نهايتي فعندئذ تفسخ الشركة العقد معي وتنهار كل أحلامي ومشاريعي.

ضغطت ايزوبيل يديها، أما بوبي فأردفت بعدما رفعت نظرها نحوها: لم أجنِ حتى الآن ألف استرليني فكيف أدفع له عشرة آلاف، فإيجار الشقة باهظ جداً وأنا مدينة للمصرف بمبلغ لا أدري كم هو بالتحديد.. ومن المؤسسة لم أحصل على سلفة وليس لدي سيارة أبيعها.. هكذا ترين أنني لا أستطيع الحصول على هذا المبلغ، والآن.. والآن، رفض والدي إعطائي

هذا المبلغ. اوه! ايزوبيل، أشعر أنني في كابوس، لا أدري لمن ألتجيء.

- هل أخبرته لماذا تريدين المال؟

- اخترعت له بعض الحكايات الحزينة ولكنني لم أكن بارعة بما فيه الكفاية. جرّبت كل شيء، وقد طلبت أن يعطيني بعض ما سأحصل عليه من إرث بعد مماته، فهذا المنزل فقط يساوي ربع مليون استرليني وأكثر.

- أعتقد أن كل ذلك لم يعطِ أي نتيجة؟

ضحكت بوبي بشكل هستيري وقالت: صحيح، لم أصل معه إلى أية نتيجة إيجابية. قال لي إنه لم يبقَ لديه دراهم وهذه بنظري كذبة بريئة. ادّعى أنه قد خسر معظم أمواله في التجارة وفي الأشياء التافهة ثم قال: إنني علقة أستنزفه وأبدو كالمومسات، وبعد ذلك راح يتكلم عنك.

نظرت إلى ايزوبيل وقد تقلصت عيناها.. ثم تابعت: «بصراحة ايزوبيل، هناك شيء غير معقول بالنسبة لموقفه منكِ. قال لي منذ قليل إنك جميلة وطاهرة فأثار أعصابي، فقلت له إذا كانت ايزوبيل طاهرة جداً فلأنك لم تعطها فرصة لتكون فتاة أخرى. لم تخرج قط، ولم تقابل أحداً، وإذا سألتني لماذا؟ أقول لك لأن هذا ما تريده بالضبط لها»..

نظرت بوبي إلى ايزوبيل فوجدتها مضطربة.

- أعتقد أنه مخادع.

أجابتها ايزوبيل: «إنه مريض جداً، وقد يتعرض في أية لحظة لنوبة قلبية أخرى».

أسندت بوبي ظهرها إلى المقعد وقالت: إذا حدث ما تقولين، حُلّت كل مشاكلي. في الماضي، كنت تملكين تفكيرك الخاص أما الآن فقد افتقدتِ ذلك لأنه كسر شوكتك ايزوبيل، كما سبق أن فعل مع أمك، وإن لم تتحركي في القريب العاجل، فلن تستطيعي أبداً أن تُلملمي ما تبقى منك من أجزاء مكسورة ومُبعثرة.

نظرت إليها ايزوبيل وأحست بدمها يصعد إلى رأسها بقوة، وشعرت فجأة بحرارة خانقة في الغرفة، فرددت بهدوء: أملك تفكيري الخاص. ماذا

تعنين بذلك؟

أجابت بوبي بحركة عصبية: «ما نفع الكذب؟ كنت تحبين يوليوس دي لاهاي، هذا ما أعنيه. وهذا ما أغضب والدي كثيراً».

بعد صمت طويل، نظرت ايزوبيل إلى بوبي. كان وجه ايزوبيل قد شحب وتغير إذ اندلعت الأنوار وبدت الغرفة تتلألأ بالأضواء فضغطت بيدها على عينها واتكأت إلى ظهر الكرسي.

دنت بوبي منها بسرعة، وسمعت ايزوبيل القلق في صوتها وهي ترد:

- ايزوبيل! ايزوبيل! هل أنتِ على ما يرام؟ وجهك في غاية الشحوب ما الخطب بحق الله؟

- لا شيء، لا شيء، أنا بخير بوبي.

حاولت الوقوف. أمسكت يد بوبي وسألتها: أخبريني بوبي، لا تكذبي، أريد أن أعرف هل هذه هي الحقيقة؟

اضطربت بوبي وتملكها القلق فقالت لها: خلتك قد فقدتِ وعيكِ كما كان يحدث لك سابقاً. بحق الله أرعبتني كثيراً، لا تفعلي ذلك ايزوبيل. اعتقدتُ أنك أفضل حالاً من السابق.

- أجل إنني أفضل حالاً من السابق وأريد أن أعلم.

ثم ارتدّت نحو بوبي بشراسة: «أخبريني الآن إذا كانت تلك هي الحقيقة؟».

هزت بوبي كتفيها باستهجان وقالت: حسناً، لا تنظري إلي هكذا! أجل، هذه هي الحقيقة. كنتِ في التاسعة عشرة من عمرك، فتاة بريئة وقعتِ في غرام يوليوس، كأنك وقعتِ في حب رجل مفترس، مؤذ.

نظرت إليها ايزوبيل بتعجب وقالت: هل كنت حقاً مغرمة بيوليوس؟ ولماذا لم يخبرني أحد بذلك؟

- ما حدث لك كان نوعاً من الإعجاب. كنتِ قد تركت لتوكِ المدرسة وكانت معرفتك به قصيرة إذ لم تقابليه سوى مرة أو مرتين وربما ثلاث مرات على الأكثر خلال الصيف الذي سبق الحادث. حدث ذلك عندما كنا نعيش

في المنزل القديم في «ديفون» حيث منزلهم أيضاً. وبعد الذي حدث بين أمك ووالد يوليوس، لم نعد نراهم إلا نادراً لأن المسألة طالت والدي وأصبحنا أعداء. كان منزلهم مجاوراً لمنزلنا، فيما بعد التقينا بهما، هل تتذكرين أخاه الأصغر إدموند؟.. كنتُ أحبه ولكنني كنت أخاف منه مع أنه كان طيباً دمث الأخلاق على عكس يوليوس. لم يكن أحد مثل يوليوس.

توقفت لحظة، ثم أضافت: على كل حال أذكر كل التفاصيل. التقينا بهما في أحد الأماكن فدعانا الأخوان لنلعب التنس في منزلهم، فذهبنا بسرية وحذر. وهذا ما حدث.

ضغطت على يد ايزوبيل برقة: مسكينة أنتِ، لقد انقلبت رأساً على عقب وهذا مثير للشفقة. كان ادموند مولعاً بك وهو بنظري أفضل من يوليوس ولكنك كنت دائماً تنظرين إلى أخيه فقط.

أغمضت ايزوبيل عينيها فسمعت للحظة في فكرها حفيف مضرب التنس وارتطام الطابة بالعشب الأخضر، ولكن سرعان ما تبخر كل شيء فهزت رأسها وقالت بحسرة: لا أتذكر، اختفى كل شيء.

قبلتها بوبي: لا تحزني حبيبتي، ليس هناك ما هو مهم لتتذكريه. إنها سحابة عابرة، عرف والدي أننا ذهبنا للعب التنس فغضب غضباً شديداً.. لم يكن ذلك ضرورياً، لأنه لم يحدث أي شيء.

ثم أمسكت وجه ايزوبيل بيديها ونظرت إلى عينيها: يوليوس لم يهتم بك قط.

أدارت ايزوبيل وجهها وشعرت في أعماقها بوجود شيء أبعد من ذلك وأهم، شيء لا يزال لغزاً وكم تمنت لو كان بمقدورها أن تعرف ما هو. ثم سمعت بوبي تقول بصوت حاد: هذا ما حدث حتى قدوم الشتاء.. ففي ذاك الشتاء ذهبنا لحضور حفلة راقصة في منزل آل «كارنر وورث»، هل تذكرينهم؟

هزّت ايزوبيل رأسها: كان أهلهم خارج المنزل في رحلة سياحية. وهناك التقينا بيوليوس وإدموند وبشباب آخرين أفرطوا جميعهم في الشراب.

بعد ذلك، ذهبتِ أنتِ في سيارة يوليوس . . أما الباقي فتعرفينه.

سألتها ايزوبيل: «هل كانت سيارة سوداء؟».

- بحق الله، لا أدري، لا أقدر أن أتذكر.

ثم هزت كتفيها وقالت:

- علينا الذهاب لتناول العشاء وإلا اعتبرت السيدة سبنسر أننا نهينها، والأسوأ من ذلك أنني أشعر منذ الآن أنني غير قادرة على تناول شيء من طعامها. حسناً، هل كل شيء على ما يرام ايزوبيل؟ لا تحاولي استعادة تلك الذكريات، فحالياً لدي في رأسي مشاكل محرجة أهم منها.

- بوبي، سأتكلم مع الوالد بخصوصك. قولي لذلك المصور إنك ستجيبينه لدى عودتك من نيويورك، فأنا أكيدة أنني سأقنع والدك إذا تكلمت معه بهدوء وبشكل تدريجي.

- هل ستفعلين ذلك ايزوبيل؟ أنت أملي الأخير فقد يقتنع منك. باركك الله ايزوبيل.

ثم طبعت قبلة على خدها ونظرت إلى المرآة أمامها فصرخت: يا الله! انظري ايزوبيل انزلقت المسكرة كلها من حول عيني. . . دعيني أنظف وجهي وأرتب شعري.

نظرت في المرآة إلى التعابير على وجه ايزوبيل ثم أردفت: حسناً أشعر ببعض التحسن لأنك أعطيتني بعض الأمل وآمل أن تنجحي بمسعاك. أعتذر إذا أزعجتك وسببت لك الاضطراب بكلامي عن تلك الأحداث الماضية.

- لا، لم أتضايق قط فكما قلت لقد مر على ذلك زمن طويل وهذا لن يغيرّ شيئاً في مطلق الأحوال. يوليوس قد مات.

في نبرة صوتها رنين من الحزن.

- هناك شيء آخر أريد معرفته بوبي.

- حسناً، ما هو؟

- كيف كان يبدو يوليوس؟ ليتني أعرف ذلك.

نظرت إليها بوبي لحظة ثم ضحكت وقالت: حبيبتي، أخبرتك للتو أنه لم يكن يشبه أحداً. كان يشبه نفسه. إذا رأيته مرة فلن تنسيه أبداً. أظنك تريدين شيئاً محدداً، حسناً. . كان مديد القامة، قوي البنية، أسود الشعر، جميل اليدين، يعزف على البيانو ببراعة، ويعرف كل شيء ويمتطي الجياد بشكل رائع. . . كان نشيطاً مجتهداً حصل على منحة مدرسية لمتابعة تخصّصه في كامبردج. لا أتذكر التفاصيل. كان فظاً جداً، وجذاباً في الوقت نفسه. هكذا كان يراه من يستريح إليه. . ولكنه كان ذا مزاج كمزاج الشيطان يستنزف النساء. بكلمة مختصرة، لا يمكنكِ وصفه، وفي نقطة واحدة لا غير أراني متفقة مع والدي: لقد تخلص منه الناس، وأنت كذلك.

شعرت ايزوبيل ببعض الحزن والألم فنظرت إلى بوبي وسألتها: هل كانت عيناه رماديتين؟

كانت بوبي قد أدارت ظهرها، فأجابتها باستخفاف: «لا أتذكر».

* * *

٢ ـ لا ضمانات

في الصباح التالي، سافرت بوبي إلى نيويورك دون أن تودع والدها. أمضت ايزوبيل ليلة ملؤها الأرق مع أنها ذهبت إلى فراشها مباشرة بعد طعام العشاء، كانت الأفكار تتقاذف رأسها. لم تصدق أنها تمكنت من أن تسأل بوبي عن يوليوس.. حاولت وضع تلك المعلومات بعيداً عنها ولكنها ظلت عالقة في ذهنها.

كذبت على بوبي عندما قالت لها إنها لا تذكر يوليوس، فلم يكن ذلك صحيحاً لأنها تتذكره.. وصحيح أنها لا تتذكر وجهه وصوته وملابسه وطول قامته ولكنها تتذكر عينيه الباردتين الرماديتين.

إذا أغمضت عينيها الآن، يمكنها أن تراهما باردتين ويمكنها أن تشاهد فيهما البغض والحقد والكراهية والاشمئزاز وأحياناً تراهما في أحلامها. علمت أنهما عيناه وهذا ما لا تشك فيه، ولكنها لا تعرف أكثر من ذلك. وهي تريد أن تعرف لماذا كان ينظر يوليوس إليها هكذا؟ ولماذا كان يكرهها؟

في الصباح التالي بدأت تعدّ خطة لتساعد بوبي. ستنتظر يوماً ريثما تكون انفعالات المشاجرة قد خمدت قليلاً وعندئذ ستتقرّب من زوج أمها. إنها الحقيقة، إنه يشكو مؤخراً من افتقاره إلى المال ولكن كما هي حال بوبي، ايزوبيل أيضاً لم تأخذ هذه الشكوى على محمل الجد. شعرت أن باستطاعتها فتح الموضوع معه فقررت القيام بذلك في اليوم التالي.

ولكنها لم تحظ بالفرصة فقد مات ادوارد سانت ايوين وهو نائم.. في الصباح الباكر جاءت إليها برنيس شاحبة الوجه ومصدومة وأخبرتها بالنبأ.

اتصلت ايزوبيل فوراً ببوبي التي ما إن سمعت الخبر حتى صمتت صمتاً طويلاً، ولكنها أخيراً قالت بصوت مختنق: أنا آسفة ولكنني في الوقت نفسه أشعر بالانفراج، ليس من المستحسن أن أكذب، أشعر الآن أنني حرّة وهذا ما ستشعرين به أنت في وقت لاحق. لن أعود لحضور مراسم الدفن ايزوبيل، سأشعر بالرياء، هل يمكنكِ التغلب على ذلك؟

أجابتها ايزوبيل أن باستطاعتها ذلك ولكنها أرادت أن تطلب منها المجيء.. إنما لن ينفع الجدال معها فسيذهب سدى فهي كأبيها.. إن معارضتهما تجعلهما أكثر عناداً. أقفلت بوبي الخط دون أن تأتي على ذكر المال، فهي لم تعد بحاجة إليه بعد الآن.

ارتدت ايزوبيل ثوباً أسود وهذا ما ارتدته أيضاً الخادمات وراحت برنيس تساعدها بتحضير الأمور اللازمة. جاء الطبيب وورلي ليوقّع على وثيقة الوفاة وطلب من ايزوبيل زيادة نسبة المسكّنات التي تتناولها عادة فنظرت إليه ايزوبيل وقالت له بهدوء: لن أتناولها.. سأتوقف عن تناول كل تلك الأدوية. أشعر أنني لن أحتاجها بعد الآن.

هز الطبيب وورلي رأسه مفكراً أن هدوءها الحالي هو نتيجة الصدمة، إنها ترتكب بذلك خطأ فادحاً. لم يكن في وضع يسمح له بالإلحاح عليها لذا تركها. ذهبت ايزوبيل إلى غرفتها ورمت كل تلك الأدوية، ثم صعدت إلى غرفة زوج أمها لتلقي عليه تحية الوداع الأخير.

بعد موته، بدا وجه ادوارد سانت ايوين هادئاً.. والواقع أنها لم تشاهده هكذا منذ سنين عديدة. نظرت إليه وقتاً طويلاً.. وراحت تفكر به كيف كان في السابق عندما تزوجته أمها وذهبت معها لتعيش في «ديفون». تذكرت كيف خرج من السيارة وأمسك يد أمها.. في ذاك الوقت بدا مديد القامة غريباً وكانت قربه فتاة صغيرة ترتدي ثوباً أحمر وتقفز صعوداً ونزولاً. ابتسمت أمها بسعادة: «ايزوبيل، هذا هو ادوارد، سيكون والدك الجديد... وهذه هي بوبي».

تنهدت ايزوبيل وأغمضت عينيها. مضى زمن طويل على ذلك..

شعرت بالأسى على زوج أمها وأحست بالكآبة لأنها وحيدة. انحنت بلطف وقبلته في جبهته ثم تركت الغرفة بهدوء.

كان السيد «شو» محامياً نموذجياً لأهل الريف. عندما اتصلت به ايزوبيل هاتفياً، قدم لها تعزيته الشخصية وقال إنه من الطبيعي أن يحضر الجنازة ثم تردد: آنسة سانت ايوين؟

ـ نعم.

لم تصحح له ايزوبيل الاسم. كان زوج أمها يحلو له أن تدعى باسمه وكان يقدمها على أنها حقاً ابنته، أما في حياتها الخاصة ومع أصدقائها فظلت ايزوبيل تستعمل اسم عائلتها «لاتيمر».

ـ آنسة سانت ايوين علمت أن ابنة زوج أمك لن تقدر أن تعود لحضور الجنازة وأنها لن تعود إلى البلاد قبل مدة طويلة.

أجابته ايزوبيل وهي تتنهد: لا! لقد تحدثت معها بهذا الموضوع.

ـ في هذه الحالة، تصرفها غير لائق ولكن يا آنسة سانت ايوين، هناك أشياء كثيرة مهمة يجب مناقشتها ولا يمكن تأجيلها.

ـ حسناً! أفهم ذلك. هل يناسبك أن نجتمع بعد الجنازة؟

ـ حسناً! أنا موافق.

ثم تردد ثانية وقال: «الموضوع، هو.. آنسة سانت ايوين، أعتقد أنك لا تعرفين طبيعة العمل الذي كان يقوم به زوج أمك في المدة الأخيرة، ولكنه كان على علاقة مع أحد مصارف لندن... وهم يودون إرسال مندوب عنهم لحضور المأتم، وبما أن معاملات زوج أمك مع المصرف قد تمت بواسطتي فمندوب المصرف يطلب السماح له بمرافقتي هذا إذا وافقت بالتأكيد».

ـ لا مانع عندي.

أجاب السيد شو الذي ظهر من صوته أنه مرتاح للجواب: «إذن اسم المندوب هو... إنه مكتوب هنا في المفكرة... اوه! حسناً اسمه.. إليوت ريتشاردسون».

ـ حسناً! شكراً. سأدوّن اسمه عندي.

ـ اوه! آنسة سانت ايوين قبل أن تقفلي الخط، هناك شيء أخير أريد إطلاعك عليه، قد يبدو غير عادي. لدى قدومي إلى المنزل للاجتماع بك لمناقشة وصية زوج أمك الأخيرة، هل تعترضين إن حضر السيد ريتشاردسون معي؟

قالت ايزوبيل بتعجب: أنا آسفة، ولكن هل تريد فعلاً حضوره؟ فالمسألة مسألة عائلية من دون شك.

تنهّد السيد جون شو ثم أضاف: آنسة سانت ايوين أخاف أن ألح عليك، قريباً تفهمين كل ذلك ولكن في الوقت الحاضر أقدر أن أقول لك فقط إن حضور السيد ريتشاردسون سيساعدنا كثيراً.

ـ حسناً! فليكن ذلك في تمام الساعة الثالثة.

أقفلت ايزوبيل الخط وهي تضغط بيدها على عينيها، فقد شعرت بألم حاد في رأسها يكاد يعمي نظرها. انحنت نحو الطاولة وهي تلهث: وهناك خطأ ما، خطأ كبير، أحست بذلك من خلال حديث السيد جون شو المهذب ومن ارتباكه الظاهر ولكن لم يكن هذا هو سبب الصداع في رأسها، بل الاسم. ريتشاردسون، إليوت ريتشاردسون.

فتحت عينيها فإذا الغرفة تسبح بالضباب.. حاولت بيأس أن تستعيد ذهنها ولكنها لا تعرف أي شخص بهذا الاسم ثم سحبت نفساً عميقاً وبدأ الصداع ينحسر. عندما ذكر المحامي ذلك الاسم، علمت أنه يعني لها شيئاً وأن له بعض العلاقة بها. والأهم من ذلك أنها شعرت للحظة بسعادة عارمة ما إن سمعت الاسم.. ثم سرعان ما انغلق الباب في فكرها واختفى كل شيء.

انطلقت من حلقها صرخة صغيرة من اليأس والغضب؛ ما خطبها؟ هل ستفقد ذاكرتها إلى الأبد؟

في المرة الخامسة حدث ذلك خلال المأتم.. دخلت إلى الكنيسة برفقة الطبيب وورلي، كانت السماء ممطرة وملبدة بالغيوم.. وكان الضوء خافتاً في كنيسة القرية الصغيرة. راحت تسير ببطء في الممشى أمام الحاضرين

القلائل. كان وقع قدميها على الأرض الحجرية يُصدر صدى عالياً ومرت بسرعة أمام أشخاص رافلين بالسواد. عندئذ حصل لها كالسابق ولكن في هذه المرة بشكل أعنف. أعماها الضوء الباهر فترنحت بشدة وأمسكها الطبيب وورلي ليساعدها. عندئذ هزّت رأسها واختفى الضوء فأكملت سيرها.

ما إن عادت إلى المنزل، حتى جلست أمام المدفأة في غرفة الاستقبال ومع اقتراب الساعة من الثالثة راح توترها يزداد شيئاً فشيئاً. لم يعد السيد شو إلى المنزل بعد الجنازة ولم تشاهده أو تشاهد السيد الغامض ريتشاردسون قرب الضريح. لا بد أنهما خرجا فوراً بعد الصلاة.

وقفت بعصبية وحاولت جمع أفكارها، عندئذ سمعت وقع أقدام ثم انفتح الباب فنظرت ايزوبيل لترى جون شو يدخل أولاً.

أخذ يتقدم وهو مرتبك ثم قال شيئاً ولكن ايزوبيل لم تره ولم تسمع ما قال، بل كانت جامدة تنظر إلى الرجل الذي تبعه إلى الغرفة وقد أصبح الآن قرب الباب ينظر إليها.

كان مديد القامة يرتدي بذلة سوداء رائعة وقميصاً أبيض وربطة عنق سوداء، شعره أسود قصّه بشكل محافظ وتركه يتدلى قليلاً فوق جبينه القاتم المستقيم. بدا جذاباً وأنيقاً وبدت تقاسيم وجهه خشنة أما فمه فكان قاسياً لا يعرف الابتسامة.. لم يتحرك ولم يتكلم ولكنه ملأ الغرفة بحضوره القوي فحجب وجود المحامي، ببساطة ظل ينظر إليها نظرات وعيد وتهديد.

حدّقت إليه ايزوبيل بتجهم وبعدم مبالاة ولكنها شعرت أن كل غريزة في جسدها وعقلها قد شُحنت بالمعرفة، فتجاوبت مع حضوره كما يتجاوب الحيوان ليس من خلال العقل بل من خلال معرفة الحواس الحادة والسريعة. ولكنها لم تحب هذا الغريب ولم تثق به بل شعرت بالخوف منه.. نظرت إلى عينيه بتردد وهدوء، نظراته القاسية والباردة لم تفارق وجهها لحظة.

تضاءلت تحيات السيد شو واختفت أمام صمت مربك.. نظر إلى رفيقه ثم إلى ايزوبيل وعلامة الارتباك على محياه.

ـ آنسة سانت ايوين، هذا هو السيد ريتشاردسون الذي تكلمنا عنه على الهاتف. السيد ريتشاردسون أقدم لك الآنسة سانت ايوين.

حاولت ايزوبيل بصعوبة أن تبتسم ثم مدت يدها. شعرت لبرهة أنه يتجاهلها، غير أنه تقدم إلى الأمام وأمسك يدها بأنامله بإحكام ثم أسرع يسحب يده.

أحنى رأسه قليلاً وقال لها: آنسة سانت ايوين اقبلي تعزيتي الصادقة.

كان صوته منخفضاً ورخيماً لا أثر للتعاطف فيه، نبرته قاسية.. قدّم تعزيته الشكلية من دون أن يجهد نفسه ببث بعض الصدق والصراحة فيها كأنه بذلك يقوم ببعض المعاملات القانونية. نظرت إلى عينيه مرة أخرى ثم عادت فأشاحت نظرها وهي تحس بقدر كبير من الراحة ينتشر في كل جسمها. عيناه بنيتان.. شكراً يا رب لأنهما بنيّتان فقد خالتهما لبرهة رماديتين.

كان ذلك نوعاً من البلاهة، فصاحب تينك العينين مات منذ زمن بعيد ولن تستطيع رؤيتهما أبداً إلا في أحلامها.

ـ تفضلا بالجلوس قرب النار.

جلست إلى جهة اليمين وجلس جون شو على الأريكة إلى الشمال أما السيد ريتشاردسون فراح يتأمل الغرفة واللوحات المعلقة على الجدران بعضها من رسم والدتها ثم جلس على المقعد أمامها وأخذ ينظر إلى وجهها.

فتح جون شو فمه أخيراً وبعد مقدمة وجيزة وضع بعض الأوراق أمامه، بدا غير مستريح ففكرت ايزوبيل إلى من سيتوجه بالحديث إليها أم إلى السيد ريتشاردسون الذي بدا السيد جون شو أمام أناقته المميزة وشخصيته القوية قروياً بسيطاً من الريف.

ـ حسناً! الآن كما سبق أن أخبرتك سيد ريتشاردسون إن وفاة السيد سانت ايوين حدثت فجأة. والحقيقة أن الآنسة سانت ايوين مرت بمرحلة توتر لعدة أشهر. أظنني ذكرت لك أنها كانت هي أيضاً مريضة. أرجو مناقشة هذه القضية بهدوء، فهذه القضية كما تعرف معقدة بالنسبة لشابة لا

خبرة لها في قضايا الأعمال.

حاول الابتسام وألقى نظرة سريعة على ايزوبيل. عندئذ نظر إليه السيد اليوت ريتشاردسون ببرودة وقال: «ما ستقوله بسيط للغاية فحتى الطفل قادر على فهمه.. وأنا متأكد أن الآنسة سانت ايوين رغم عدم خبرتها لن تجد صعوبة في فهم هذه القضية».

ثم نظر إلى ايزوبيل وهو يتلفظ بكلمة «عدم خبرتها» بطريقة جعلتها تشعر بالغرابة. فامتقع وجهها وبان عدم الارتياح على محيا جون الذي راح يقلب الصفحات والأوراق على ركبتيه.

ـ حسناً قبل قراءة وصية زوج أمك، آنسة سانت ايوين من المستحسن أن أشرح لك بعض الأمور. بعدما باع والدك حصته في شركة العائلة للهندسة، ربما كنت تعرفين ذلك أم تجهلينه. كان زوج أمك يعيش من فائدة استثماراته لكن بعض تلك الاستثمارات كان من دون كفالة، لذلك خلال السنوات الثلاث الأخيرة وجد السيد سانت ايوين نفسه في مأزق مالي وهذا ما اضطره للاستعانة بقروض مختلفة نظمها له السيد ريتشاردسون من خلال مؤسسته المصرفية.

تردد وهو ينقل نظراته بين ايزوبيل والسيد ريتشاردسون الذي كان يراقبه بفارغ الصبر.

ـ لسوء الحظ ساء وضع السيد سانت ايوين المالي في السنوات الأخيرة فالفائدة على القروض مرتفعة جداً كما تعلمين والقروض لا تمنح من دون ضمانة عقارية. وهكذا أصبحت معظم أملاك سانت ايوين مرهونة ثم خسرها في وقت لاحق.

قاطعه السيد أليوت ريتشاردسون ببرودة: أعتقد أن من الأفضل لك التطرق إلى النقطة الرئيسية المهمة، فأنت تضيّع وقتي ووقت الآنسة سانت ايوين أيضاً.

وقف ونظر إلى ايزوبيل: أنا آسف آنسة سانت ايوين فالوضع واضح جداً. توفي زوج أمك من دون أملاك وموجودات قيّمة، هذا المنزل وكل ما

فيه ملكي.

اتسعت عيناها وهي تردد: كل شيء هو ملكك.

فكرت في بوبي: هل تعني أنه مفلس؟

اليوت ريتشاردسون رجل وقح يبدو عليه الاشمئزاز، عرفت ايزوبيل فوراً في ما يفكر، يظنها امرأة جشعة متحجرة القلب فملامح وجهه تدل على ذلك بوضوح.. ارتدت نحو جون شو وقالت له: لكن هذا غير معقول! لم أحلم ولم أفكر فيه قط.

ـ آنسة سانت ايوين، صدقيني أنا آسف جداً. بذلت جهدي للحؤول دون ذلك وقدمت له النصائح مرات عديدة فلو اقتنع زوج أمك ببيع هذا المنزل منذ بضعة سنوات لتغيّر مجرى حياته ولأمكنه تحاشي ما يحصل الآن ولكنه رفض ذلك.

قاطعته ايزوبيل بانفعال: «ماذا عن بوبي؟ كيف يتركها هكذا بدون أي شيء؟ إنها ابنته وهي تتكل عليه».

قاطعها السيد ريتشاردسون بصوت ساخر: «وأنت كذلك من دون شك».

ظهر الغيظ على وجه السيد شو للمرة الأولى إذ قال للسيد ريتشاردسون:

ـ إنها حالة مأساوية كما ترى.. وقد أعطيتني كلمتك كضمانة في هذا الوضع الصعب.

ـ أجل، وعدتك بذلك عندما فهمت منك أن الآنسة سانت ايوين مريضة جسدياً وأنها سريعة التأثر والحزن، ولكنني لا ألاحظ ذلك.

اتجهت نظراته إلى ايزوبيل، ثم أردف: «وهي تبرهن عن كفاءة كبيرة في فهم القضية كما تفهمها أنت».

التقت عيناه بعينيها: لم يكن لدى السيد سانت ايوين مالاً أو أملاكاً ليتركها لابنته أو لك أيضاً، والحقيقة أنه لم يترك شيئاً. هناك ديون أخرى لا يمكن تغطيتها حتى لو بيع هذا المنزل ومحتوياته ويجب علي مراجعة رؤسائي

لأعرف ما إذا كانوا متشددين بهذا الشأن.

نظرت إليه ايزوبيل بغضب واختنق صوتها في حنجرتها: هل ستبيع المنزل؟ أنت تقترح بيع هذا المنزل وكل ما فيه؟

ـ بكل تأكيد.

نظر إلى ساعته ووقف.

ـ لكنه منزل زوج أمي الذي أحبه كثيراً.

أجابها بانفعال: أعتقد أنه لا علاقة لهذا الشعور بالموضوع.

ارتدت ايزوبيل إلى الوراء وقد ترقرقت عيناها بالدموع: أنا لا أفهم... هذا غير معقول، لا أصدق ذلك.

نظرت إلى وجهه، كان يقف وقد أدار ظهره للضوء. عندما تراجعت إلى الوراء لتبتعد عنه أخذ الضوء يزداد شيئاً فشيئاً، فانطمس هو والغرفة وتفكيرها وكل شيء وشعرت بوجهها يكاد يحترق. أحست أنها على وشك الانهيار فوضعت يدها بصعوبة على طرف كرسي خلفها، ثم راحت تهوي على مهل كأنها تقع من مكان شاهق ومن حيث لا تدري شعرت بذراع سترة سوداء تصل إليها وتمسك بها.

* * *

ـ رجع إلى لندن؟

كانت بوبي تصرخ وهي تتكلم مع ايزوبيل عبر الهاتف.. بدت كأنها لا تريد أن تصدق:

ـ ماذا؟ هل تركته يذهب هكذا؟ أنت غبية ومجنونة.

ـ أرجوك، بوبي، حاولي أن تفهمي، أغمي علي. كانت صدمة مريعة لي، وهو كان مخيفاً وبارداً. لا يعرف معنى اللياقة والتعاطف.. عندما استيقظت من غيبوبتي لم أجده.. عندئذ تكلمت مع جون شو الذي أطلعني مرة ثانية على وضع والدك المالي.. لقد أخبرك الحقيقة فهو لا يملك فلساً واحداً، صكوك الملكية موجودة في مؤسسة ريتشاردسون وهي مرهونة

لأمرهم.

استرسلت بوبي بالشتم: أنت باردة ضعيفة ايزوبيل، كيف فقدت وعيك؟ لو كنت شخصياً هناك لقمت بعمل ما، ولحاولت كسب عطفه، أنت تقدرين على ذلك.. لا شك أن هناك طريقة.

أجابتها ايزوبيل بهدوء: «كان يجب أن تكوني موجودة هنا».

ـ لا تقولي لي ذلك، لم يكن باستطاعتي أن أكون هناك، ولا أقدر أن أذهب الآن خصوصاً الآن. إذا كانت هذه هي الحقيقة فعليّ أن أعمل أكثر من السابق، يجب أن أحاول الحصول على هذا المبلغ. حاولت تأجيل دفع المبلغ فقال لي ليام توماس إنه سيمهلني حتى عودتي من باربادوس، إسمعي! ما رأيك إذا اقترضنا من المصرف، فبعدما أقرضوا والدي كل ذلك المبلغ قد يقرضونا هذا المبلغ الصغير، ما قيمة عشرة آلاف استرليني بالنسبة لهذا المصرف الشديد الثراء؟

أجابتها ايزوبيل بصبر: بوبي، أنت بحاجة إلى ضمانة. لا يقرض المصرف أحداً بدون ضمانة..

ـ لا تكوني انهزامية ايزوبيل، يمكنك الاستفسار والاستفهام. ألا يمكنك ذلك؟ أسوأ ما يفعله هو أن يقول لك «لا» وربما قال «نعم». استعملي مخيلتك بحق الله، قولي له إننا معدمتان.

ـ لن يصدق أنك معدمة.

ـ حسناً، حسناً أخبريه أنك أنت شخصياً معدمة، فماذا ستفعلين؟ وأين ستقطنين؟

ـ فكرت في ذلك، يجب أن أجد عملاً.

أحست بالتعب فضغطت بيدها على جبينها.

ـ حسناً أخبريه أنك بحاجة فقط إلى رأس مال صغير، إلى قرض بسيط حتى تبدئي بالعمل.. ثم عديه بأن تدفعي له المبلغ بعدئذ مع الفائدة. فإن وعدته بذلك وافق على إقراضك المبلغ. عندئذ تعطينني المال الذي سأعيده لك بالتقسيط من عملي. ألا توافقينني على ذلك ايزوبيل؟ ستنجح هذه

الخطة. أنا أكيدة منها. هذا الرجل ليس وحشاً، يجب أن يكون إنساناً. اذهبي إليه، واشكي له أمرك، طالما نجحت بذلك مع والدي.. إذن لماذا لن تسير الأمور على ما يرام مع هذا الرجل ريتشاردسون؟

أصبح صوت بوبي حاداً جداً وقاطعاً، فتضايقت ايزوبيل التي أرادت الاعتراض، لكنها ابتلعت كلامها.

ـ سأحاول ولكن لا أعتقد أن ذلك سينجح.

ـ دعي الأمور تسير بنجاح، أقنعيه ثم اتصلي بي هاتفياً بعدما تقابلينه، عديني بذلك.

ـ حسناً!

ـ إنك ملاك.

وضعت ايزوبيل السماعة وهي تشعر بالإنهاك ففكرة رؤية هذا الرجل مرة ثانية تشعرها بيأس لا مثيل له.. لو كانت قوية ومعافاة لاستطاعت مواجهته والإجابة عن أسئلته بذكاء ودقة ولكنها لا تشعر بالقوة بل تحس أنها مريضة ورأسها يؤلمها وشهيتها معدومة وطاقتها صفر.. لا تستطيع النوم.

شاهدت برنيس وجهها شاحباً فأمسكت ذراعها وقالت لها: انظري، متى ستقبلين بالأمر الواقع؟ لن يساعدك ذلك بشيء، إذا كنت تريدين نصيحتي فاذهبي وقابلي طبيباً أخصائياً. اطلبي من الطبيب وورلي أن يعاينك وأن يعطيك رأيه فهو يعلم كل شيء. إنه إنسان طيب، لطيف ونواياه حسنة. إنه رجل عجوز، ولكنه أحب زوج أمك كثيراً. يجب أن تستشيري طبيباً مميزاً ومتخصصاً، عديني بذلك ايزوبيل، أنا قلقة عليك، عاد رأسك يؤلمك أليس كذلك؟

أومأت ايزوبيل برأسها وأمسكت ذراع برنيس:

ـ هل تعتقدين برنيس أن بي خطباً ما؟ هل هذا ما قصدته بكلامك؟

جالت الأفكار البشعة في رأسها فتجهّم وجه برنيس.

ـ انظري، لا أقدر أن أقول ذلك ولكنك تشكين من صداع ربما هو سبب وأصل كل ما يحدث لك. يجب عليك استشارة طبيب..

فعلت ما قالته لها برنيس.. اتصلت هاتفياً بالطبيب وورلي، فأخذ لها موعداً مع طبيب أخصائي بالتشخيص في لندن. شعرت ببعض الراحة.. كان عليها القيام بثلاثة اتصالات هاتفية ضرورية: اتصال مع الطبيب وورلي، وآخر مع بوبي والآن الاتصال الأخير والأسوأ مع اليوت ريتشاردسون. فتشت عن البطاقة الشخصية الصغيرة التي تركها لها، وعليها اسمه وعنوانه ورقم هاتفه. فكرت أن لا مجال لتأجيل ذلك، بعدما طلبت الرقم تنقلت المخابرة عبر ثلاث سكرتيرات وأخيراً وصلت إليه فشعرت ايزوبيل بالراحة ولكن دوافع المخابرة أغضبتها فشعرت بحيويتها تتراجع قليلاً.

قال بصوت بارد وقاطع: «آنسة سانت ايوين».

شعرت أنه ينظر إلى ساعته.

قالت بصوت بارد أيضاً: «أريد الالتقاء بك لمناقشة بعض الأمور».

أجابها كأنها تحول بينه وبين عمله: أنا موافق، هل يمكنك المجيء إلى لندن؟ ربما نتناول الغداء معاً.

لم يكن الموعد في مطعم أو في ناد، بل في منزله.

أحنت ايزوبيل رأسها بسبب المطر والهواء فزاد شعورها بالغضب والاستياء. عرفت الآن لماذا ألح عليها أن يكون اللقاء في منزله لأنه يريد أن يكون في أرضه الخاصة فهذا يجعله في موقف قوي.

أين يسكن؟ يقطن في منطقة لا تعرفها بالتأكيد.. منطقة نمت وتطورت وازدهرت في السنوات التي كانت خلالها منزوية في الريف. «في باربيكان في الطابق العلوي في أحد الأبراج العالية. خذي المصعد الأوتوماتيكي فهو يؤدي إلى شقتي فقط».

نظرت من حولها في ارتباك ظاهر، كانت الريح القوية قد بعثرت شعرها والمطر بلل بشرتها... فكرت في الريف الهادىء الجميل المنعش حيث قضت طفولتها، توقفت ونظرت إلى البناية الشاهقة الضاربة بالسحاب حتى لا يمكن للمرء رؤية قمتها. على ما يبدو يروق له السكن

عالياً جداً لتكون لندن تحت ناظريه وليرى بلدان العالم تمتد أمامه من الطرف الآخر.

ضحكت بسخرية من نفسها، من يكون السيد ريتشاردسون؟ الشيطان أم المخلّص؟ سمح لها رجل الأمن بالدخول، كان المصعد سريعاً جداً فتضاعف خفقان قلبها وشعرت بالطنين في أذنيها. توقف المصعد. وهناك وجدته ينتظر وليس على وجهه ابتسامة.. كان يرتدي سترة سوداء، وسروالاً أسود ضيقاً أظهر مدى طول قامته. لم يمد لها يده بل حياها باقتضاب وأقفل الباب خلفه.

دخلت إلى غرفة واسعة عالية فانبهرت عيناها لحظة لأن النوافذ الضخمة كانت بدون ستائر. كانت تطلّ على مدينة من الظلال والأنوار. لم تبد المدينة كبيرة من هنا، بل بدت بالأحرى رائعة وساحرة حتى شعرت أن باستطاعتها الإمساك بها وملامستها.

قال لها: هل تسمحين لي بمعطفك؟

مد يده ليتناوله فلامست يداه عنقها، ارتجفت ايزوبيل وشدت بأظافرها على راحتيها وشعرت بالدم يتصاعد بقوة وعنف إلى رأسها. كان ينظر إليها بفضول وتهذيب.

ـ هل أنت بخير؟ لن تصابي بالدوار مرة ثانية.

ـ لست معتادة على ذلك.

قالت ذلك باختصار ثم نزعت عنها معطفها. ومن دون أن يطلب منها مشت إلى داخل الغرفة وجلست. أخذت تنظر من حولها. الغرفة طويلة وعريضة.. والسقف عال جداً... في آخرها سلالم تقود إلى طابق آخر وإلى جانب الغرفة رأت غرفة الطعام التي بدا في وسطها مائدة صفّ عليها الغداء. كل شيء في الغرفة جميل وحديث.. نظرت إلى ما حولها بفضول. في الوسط سجادة عاجية اللون، أما الأثاث فأبيض.

ـ ماذا تحبين أن تشربي؟ قهوة؟ شاي؟ أم عصير؟

ـ عصير رجاء.

وعادت تنظر إلى الغرفة. كان ذلك فضولاً منها، لأنها لا تكاد تعرفه ولأنها لا تنسجم معه. فشكله البارد وجاذبيته الباردة يشعرانها بأنهما غريبان. تناولت منه كوباً من العصير بحذر مخافة أن تلمس يده يدها.

رفعت ايزوبيل نظرها إليه وقالت: منزلك رائع. اعذرني إذا كنت أنظر كثيراً من حولي، أشعر بشيء من الصدمة فمنزلك مقارنة بمنزل زوج أمي حديث الطراز كثيراً.

أجابها باقتضاب: أجل! أفضّل ألا أعيش في الماضي.

نظرت إليه بفضول وشعرت بالضيق في لهجته: هل تجد ذلك سهلاً؟ معظم الناس لا يجدون ذلك.

ابتسم للمرة الأولى منذ رأته وأجابها: أنا معتاد على ذلك.

نظر إليها وجلس فجأة.

ابتسمت ايزوبيل بتهكم: هذا يجعلنا متضادين، أنت تريد نسيان الماضي وأنا أريد أن أتذكره.

سكتت فجأة وتمنت لو أنها لم تنفوه بهذا الكلام لأنها لا ترغب مناقشة مرضها معه.

أسند ظهره إلى طرف الكرسي: «آه! أجل ذكر لي جون شو شيئاً عن ذلك. حادث سيارة، نوع من فقدان الذكرة. الحقيقة أنني أجد هذا الوضع الخاص أمراً غريباً يصعب علي تصديقه».

امتقع لون ايزوبيل بسبب فظاظته: «هذا ما ظننته أنا أيضاً يوماً، أما الآن فأجده حقيقة لا مفر منها».

ـ كيف حدث لك ذلك؟ أخبريني كيف وبأي شكل يحصل فقدان الذاكرة؟ ألا تتذكرين أي شيء قبل بعض التواريخ؟ أم لا تتذكرين سوى بعض الأشياء؟ هل المصاريع مقفلة دائماً أم تُفتح من وقت لآخر؟ هل هناك ستار يحجب عنك الأشياء ثم يعود أحياناً وينفتح؟ هذه هي الصورة الخاصة بحالتك.. أعتقد الستائر، أو النوافذ، والأبواب، أليس كذلك؟

وضعت ايزوبيل كوب العصير على الطاولة ووقفت وقالت بغضب:

ـ كيف يمكنك التكلم بهذا الشكل؟ لو قلت لك إنني عمياء وصماء فهل كنت ستتخذ هذا الموقف؟ لماذا أنت فظ بهذا الشكل؟

ـ أعتذر منك.

ولكن لم يكن في نبرة صوته شيء من الاعتذار.

ـ أنت كما قلت مصابة.. لك تعاطفي.. لو كنت أنا المصاب منحتك تعاطفي.

انحنى بعيداً بسرعة.

ـ أرجوكِ ابقي حيث أنتِ. لدينا عمل نناقشه.

جلست ايزوبيل ببطء.. فعلت ذلك على مضض فلم ترد في تلك اللحظة إلا الخروج وعدم محادثة ذلك الرجل الوقح المتغطرس الذي لا يطاق، لكنها فكرت في بوبي وفي ما قالته لها لذلك أطاعته. تفاجأت عندما رأت عينيه السوداوين تنظران إليه بتهكم وكأنه يجدها ليس فقط خسيسة بل أيضاً مزيّفة.

قالت بصوت منخفض: سأنطرق مباشرة إلى الموضوع، أعرف أن وقتك ثمين ولا أريد أن أضيعه لك. بعد خروجك من منزل زوج أمي...

قاطعها برقة وهو يصحح لها العبارة: «منزلي».

نظرت إليه ايزوبيل بغيظ ورفضت تغيير العبارة:

ـ بعد خروجك، اطلعت على وصية زوج أمي ودققت في حساباته فوجدت أن كل ما ذكرته في ذلك اللقاء صحيح.. أصبحت أنا وابنة زوج أمي معدمتين.. تكلمت معها هاتفياً فهي تعمل في نيويورك، وشرحت لها الوضع.

ترددت وتذكرت ما قالت لها بوبي: تباكي.. ولكن كيف تبكي أمام هذا الرجل؟ إن نفسها تثور من هذه الفكرة.

أردفت: «الوضع صعب جداً علي. بوبي تعمل، أما أنا فبسبب مرض زوج أمي لم أعمل منذ سنوات. سيمضي وقت طويل حتى أجد عملاً وأجد مكاناً أعيش فيه... سيساعد في ذلك كثيراً لو حصلت على بعض المال».

اختنق صوتها: لذلك أسألك إن كانت شركتك توافق على إقراضي مبلغاً.

ـ أفهم ذلك.

تناول قلماً عن الطاولة الموجودة إلى جانبه وتناول مفكرة صغيرة وآلة حاسبة من جيبه وسألها: ما هو المبلغ الذي تريدينه؟

قامت ايزوبيل بجهد كبير لتقول له: «عشرة آلاف استرليني».

رفع رأسه فتلاقت نظراته بعينيها.

ـ عشرة آلاف استرليني، في أية مهلة ستسددينها؟

ـ عليك أنت أن تحدد المهلة.

راح يضغط بإصبعه على مفاتيح الآلة الحاسبة ثم أضاف:

ـ الفائدة عندنا ١٤,٥ بالمئة وهذا يعني أن عليك أن تسددي شهرياً مبلغاً مرتفعاً: حوالي ثلاثماية استرليني لمدة ثلاث سنوات.

ـ أجل، ربما يمكنني تأمين ذلك المبلغ لك.

شعرت ايزوبيل بقلبها يدق بسرعة وقالت له: هل تستطيع؟

ثلاثماية استرليني شهرياً هو مبلغ كبير بالنسبة لها لكن ليس كبيراً بالنسبة لبوبي..

سألها ببطء: «أجل... ما هي الضمانة التي ستقدمينها؟».

لم تشعر ايزوبيل بالخيبة بل نظرت إليه وأجابته: تعرف أنني لا أملك ضمانة.

وضع القلم والمفكرة جانباً وقال لها: عزيزتي، أخشى ألا أقدر على مساعدتك.

ـ تعلم أنني لا أملك شيئاً وأن لا ضمانة عندي ولكن عندما أجد عملاً وأتقاضى راتباً أتوقع أن أسدد ما علي.

ـ آنسة سانت ايوين أرجو أن تسامحيني إذا تكلمت معك بصراحة.. فما تقدمينه من اقتراحات ضعيف جداً. لم تعملي منذ خمس سنوات لأنك كنت مريضة ولأنك غير مدربة على العمل ستجدين صعوبة بإيجاد عمل

وبصراحة إذا حصلت على عمل لن تتمكني من تسديد الاستحقاقات التي ستتوجّب عليك. أنا آسف الجواب هو لا.

وقفت ايزوبيل وهي غاضبة جداً.

ـ لا أطلب منك شفقة وإحساناً. أسألك منحي قرضاً مع فائدة مرتفعة. سأسدده لك. لن يرفض أي شخص مقترحاتي كما تدعي! باستطاعتي أن أعمل، فلدي ثقافة عالية ولست مجنونة أو غبية حتى ولو عاملتني كذلك...

ـ اجلسي من فضلك، لم أنو قط إهانتك، شرحت لك فقط حقيقة الوضع... يجب أن تعيشي في عالم الواقع الآن، هل فهمت؟

بعد صمت وجيز، قالت له ايزوبيل: ماذا تعني بذلك؟ يمكنني فهم الحقيقة كما تفهمها أنت.

وقف بهدوء وأجابها: بالطبع، هل نستطيع تناول طعام الغداء الآن؟ يبدو أننا بدأنا بخطوة خاطئة. لماذا لا نجلس الآن ولماذا لا تحدثيني قليلاً عنك وعن مشاريعك فعندئذ يمكنني تقديم النصيحة لك؟

راح ينظر بهدوء تارة إلى وجهها وطوراً إلى جسمها: ربما وجدنا حلاً آخر لهذه المشكلة.

نظرت إليه ايزوبيل: هو لا يعني ما أفكر أنه يعنيه، هو لا يقدر!... كان ينظر إليها نظرات أخافتها... إنه يقوم بعملية تقويم.. نظر إلى قدّها الرشيق وإلى وجهها وشعرها كأنه يقدّر قيمة سيارة أو حصان يهم بشرائه، لم يسبق أن نظر إليها أحد على هذا النحو.. حاولت بيأس إقناع نفسها بأنها على خطأ.

ابتسم وقال لها: هل أقدر أن أقول إنك تبدين جميلة ورائعة فالأسود يناسبك؟ والآن هل نذهب لتناول الطعام؟

* * *

٣ ـ قطار نحو المجهول

كانت طاولة المائدة من الزجاج والسكاكين من الفضة، وبدا الطعام شهياً جداً.

وجدت على المائدة مجلة قديمة فاستغربت وجودها.. تناولتها فإذا تاريخها يعود إلى خمس سنوات خلت.

نظرت ايزوبيل إليه بسرعة، إن هذا التاريخ هو التاريخ الذي تعرضت فيه لذلك الحادث.. في تلك اللحظة، تذكرت شيئاً قاله.. نعم.. قال لها إنها مريضة منذ خمس سنوات فكيف عرف ذلك؟ نظرت إليه باستغراب. أوجود هذه المجلة القديمة أمر مدروس؟ عادت فنحت عنها كل تلك الأفكار.. فربما جون شون هو الذي أخبره بأنها تعرضت للحادث قبل خمس سنوات.

أثناء تناول الطعام شعرت بالاسترخاء فما إن جلسا إلى المائدة حتى خفّت تعابير البرودة عن وجهه. شعرت أنها تسرعت وأخطأت بالحكم على تصرفه، فهي تجده الآن طبيعياً جداً وبالأحرى لطيفاً. تأملته لتحاول تقدير عمره، يبدو في أوائل الثلاثين أو في منتصفها. وجدت صعوبة في تحديد عمره بالضبط.

نظر إليها وقال لها: «والآن هل ستكلمينني عنك؟».

ـ ليس هناك شيء كثير لأقوله.

ابتسم كأنه يشجعها: «أخبريني عن عائلتك! خلال تعامل زوج أمك مع مصرفنا، لم ألتقِ به قط».

نظرت إليه ايزوبيل متعجبة: «أحقاً ذلك؟ أليس هذا أمراً غير عادي؟».

ـ لا، فالأعمال الصغيرة تحصل غالباً بواسطة العملاء.

اتجهت أنظاره إلى البعيد، ثم أردف: «أخبريني هل عشتِ دائماً معه؟».

أجابته ايزوبيل: «لا يزال والدي الحقيقي على قيد الحياة وهو يدعى «فيليب لاتمير». عادة أفضل استعمال اسمه. كان ذلك يضايق زوج أمي لهذا يدعوني الخدم في المنزل آنسة سانت ايوين.

وضع السكين والشوكة على الصحن وقال لها: «هل كنت تقابلين غالباً والدك؟».

ـ لم أره قط. إنه نحّات يعيش في كورنوول منذ عدة سنوات. افترق عن والدتي وأنا في الرابعة أو الخامسة من العمر.. لا أكاد أذكره. عندما بلغت الثامنة تزوجت أمي ادوارد سانت ايوين الذي كان مطلقاً أيضاً وكان لديه طفلة صغيرة من عمري، بوبي. إنها عارضة أزياء وهي في أميركا الآن.

ـ أجل ذلك صحيح، أخبرني بكل ذلك جون شو.

يبدو أنه لا يهتم لأمر بوبي. قال: «هل والدتك رسامة؟».

ـ أجل كانت كذلك. لا أظنك لاحظت ذلك ولكن معظم اللوحات في غرفة الاستقبال هي رسوماتها.

ـ رسامة، تزوجت أولاً من نحّات ثم ثانية من رجل أعمال. هل كان زواجها الثاني سعيداً؟

فاجأها السؤال فحوّلت أنظارها إلى الأرض.

ـ لا أعلم! من المحتمل لا. أعتقد أنه لم يكن هناك أشياء مشتركة بينهما، ولكن زوج أمي كان دائماً لطيفاً وكريماً. ثم توفيت عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.

ـ هل بقيتِ مع زوج والدتك.

ثم استدرك قائلاً: لكن جون شو قال لي إنكم لم تكونوا سابقاً قاطنين في

المنزل الحالي.

ـ لا بل كنا نسكن في ديفون، قرب دارتمور، فأعمال زوج أمي كانت آنذاك في منطقة الغرب وكان يحب تلك المنطقة وأنا كذلك.

ابتسم: أعرف تلك المنطقة جيداً. لدي منزل هناك ولكن ليس لدي الوقت لأزوره. ورثته عن عمي منذ سنوات قليلة.

رفع بصره إليها ثم أردف: «إنه موجود على التلال، غرب بلدة توتنس... هل تعرفين توتنس؟».

ابتسمت ايزوبيل: آه! إنها رائعة جداً، أفتقدها أحياناً، لم أعد إلى هناك قط. انتقلنا بعد الحادث بناء على رغبة زوج أمي.

رفع حاجبيه قليلاً وقال: أحقاً ما تقولين؟ لماذا فعل ذلك؟

ـ حسناً، كان ذلك من أجل سلامتي أولاً لأنني كنت مريضة جداً. قال له الأطباء إن تغيير المنطقة والمناظر يساعدني كثيراً. وبعدما تقاعد زوج أمي من عمله، انتقلنا.

نظرت إلى الساعة ثم تابعت: كانت بادرة كريمة من قبله. كان رجلاً لطيفاً جداً وأنا متأكدة أنه لم يرد قط الرحيل من ديفون ولكنه فعل ذلك لسلامتي...

قاطعها قائلاً:

ـ كان ذلك الحادث على ما يبدو سيئاً جداً. هل يضايقك التكلم عنه؟

أجابته: «لا أستطيع بالحقيقة التكلم عنه لأنني لا أذكره كلياً».

ترددت: «كنت في التاسعة عشرة من عمري، وقد تركت المدرسة تلك السنة، ذهبت مع بوبي إلى حفلة راقصة في منزل إحدى صديقاتنا التي كان أهلها مسافرين.. أعتقد أن معظم الموجودين أفرطوا في الشراب.. أقلني أحدهم معه إلى المنزل وعندئذ تعرضت لذلك الحادث. وهذا كل شيء».

ـ ألا تذكرين شيئاً عن ذلك الحادث؟

هزت ايزوبيل رأسها نفياً.. ترددت ورفعت نظرها إلى وجهه الذي لم تظهر عليه علامات الغضب أو التعجب بل كان ينظر إليها بفضول بارد

شجعها على متابعة الكلام.

ـ بعد الحادث فقدت الذاكرة واختفت من ذاكرتي بضع سنوات من حياتي فقط، كنت في غيبوبة لبضعة أشهر. بعد الحادث أصبحت ذكرياتي مشوشة جداً، عندئذ ترك زوج أمي المنطقة وانتقلنا إلى كوست وولدز.

ضرب المائدة بإصبعه وقال: «هذا غريب جداً... وماذا حدث للسائق؟».

ـ السائق؟

ـ أجل، الرجل الذي أقلّك إلى المنزل.

شعرت ايزوبيل بالدماء تصعد إلى وجنتيها ثم نظرت بسرعة إلى البعيد..

ـ مات. انزلقتُ خارج السيارة أما هو فتدهور تحت الطريق ومات. لا أذكره كلياً.

أجابها بصوت منخفض: «إنه حادث مأساوي، هل كان لديه عائلة؟ أهل؟ زوجة؟».

نظرت إليه ايزوبيل بتعجب: آه! لا، لم يكن متزوجاً... كان والداه متوفين، لديه شقيق على ما أعتقد.. لم أكن أعرفهما إلا قليلاً.. ومنذ الحادث لم أر أياً منهما إذ لم يسمح زوج أمي بذلك لأنه كان يضع اللوم عليه.

سألها ببرود: «وأنت حذوت حذوه بلا شك. وضعت اللوم عليه».

ـ لا.. لم أضع اللوم عليه، فكثيراً ما تحدث مثل هذه الأشياء.. كنا صغاراً، وأضف إلى ذلك أنني أصبحت على خير ما يرام وشفيت. أما هو فمات.

شعرت فجأة بالبرد.

ـ أرجوك، فلنترك هذا لأنني لا أشعر بالراحة.

ـ أعتقد أنك قلت لي منذ بعض الوقت إن ذلك لا يضايقك.

ـ حسناً! هذا يضايقني، فعندما أتكلم عنه أشعر بالكآبة.

كانت الكلمة غير مناسبة.. وهو كما يبدو وجدها غير مناسبة..

نهض فجأة عن الطاولة واقترح عليها الجلوس أمام المدفأة وتناول بعض القهوة. عاد بعد قليل ومعه القهوة، بدا غامضاً ومفكراً كأنه يحلل شيئاً في رأسه وجلس إلى جانبها.

طوت إيزوبيل يديها على طرف ثوبها. تمنت الآن لو أنها لم تعطِ هذا الرجل ثقتها. شعرت بتفاهتها فلا شأن له بحياتها.

ـ أرجوك، لا أريدك أن تعتقد أنني جئت إلى هنا لأخبرك قصة تافهة، لم آتِ من أجل ذلك، لم يجدر بي أن أطلعك على كل ذلك.

ابتسمت بحياء: قلت لي إن بإمكانك إعطائي بعض النصائح.

أجابها وهو يفكر: «عشرة آلاف استرليني! أستغرب كيف وصلت إلى هذا الرقم بالذات؟».

ـ أريد القدوم إلى لندن لمتابعة دروس في السكرتاريا لمدة ستة أشهر على الأقل. أنا بحاجة إلى دراهم لدفع قسط المدرسة ولاستئجار غرفة للسكن، وقد يطول الأمر أيضاً قبل أن أجد عملاً.. كما سبق وذكرت، أنا بحاجة إلى هذا المال من أجل ذلك كله.

راح ينظر إليها بتمعن فشعرت بالارتباك.

قال لها: «أدرك ذلك، قلت لك إن إمكانياتك العملية ضعيفة. ولكن هل لديك إمكانيات أخرى؟».

التقت عيناه بعينيها فنظرت إليه بتعجب.

رددت: «ماذا تقصد بإمكانيات أخرى؟».

ـ يصعب علي مساعدتك مهنياً أي من خلال المؤسسة ولكن يمكنني مساعدتك شخصياً.

تعجبت من جرأته وقالت: «هل تستطيع ذلك؟».

هز كتفيه استهجاناً:

ـ لست فقيراً فعشرة آلاف استرليني هي مبلغ زهيد أستطيع تدبيرها بسهولة في بعض الأحيان.

ـ أنا لا أفهم ما تعني.

أدارت ايزوبيل وجهها بعيداً وشعرت بالخوف والانزعاج. عندما تكلما على المائدة شعرت بالاطمئنان لهذا الرجل ووثقت به، أما الآن فلا تكاد تصدق ما اقترح عليها وما تقرأه حقاً في عينيه.

قال لها فجأة بصوت حاد: «انظري إلي».

أدارت ايزوبيل وجهها نحوه غصباً عنها، فإذا به ينظر إليها عن قرب وكأنه يريد قراءة أفكارها.

ـ هل تعلمين أن عينيك جميلتان جداً وغريبتان؟ لم أر في حياتي أجمل منهما، لكن فيهما شيئاً لا أفهمه، شيئاً مثل الهروب. تبدو نظراتك حالمة.

اتسعت عيناها.

ـ أعتقد أنه سيكون مسلياً ومفيداً جعلك تستفيقين من سباتكِ... سيكون ذلك صفقة ثمينة غالية. ألا تريدين ذلك؟

قبل أن تستطيع ايزوبيل التحرك والنهوض من التنويم المغناطيسي الذي أحدثه صوته المنخفض، رفع يده نحو عنقها وعيناه لا تفارقانها أبداً... ابتعدت ايزوبيل إلى الوراء خافقة القلب.. راح ينظر إليها متسائلاً وكأن محياها قادر على إخباره شيئاً. عندما لم تتحرك أطبق عليها يعانقها فشعرت ايزوبيل برأسها يكاد ينفجر وتكهرب جسمها.

غمرها بقوة وشدها إليه بتوق.. فجأة شعرت أنه فقد زمام نفسه فأخذ يعانقها بشغف جامح... انجرفت مشاعرها أيضاً وقبل أن تستطيع إيقاف اندفاعها، شعرت بيدها ترتجف وتسترخي أمام دقات قلبه القوية. راح يعانقها ويعانقها بلا توقف.

ثم تبادلا النظرات.. كانت ايزوبيل ترتجف من الارتباك وبدا وجهها مضطرباً ومتجهماً. تردد كأنه يريد أن يقول شيئاً، أما ايزوبيل فانجرف رأسها في دوامة من الضوء والعتمة يرافقه شعور غريب بالفرح والخوف. حاولت إجبار عقلها على العمل بصورة طبيعية، ولكن ذلك لم يوصلها إلى أية نتيجة.

أخيراً قال لها بصوت منخفض: «أخبريني الآن، هل كنت تكذبين؟».

تفرّست فيه ايزوبيل ورددت: «أكذب؟».

ظنت للحظة أنها لم تسمعه ثم استدركت: أيقصد أنها تكذب بشأن المال؟... بالطبع هذا ما يقصده.. فهو يعلم أنها كذبت بهذا الخصوص.

امتقع وجهها وتراجعت إلى الوراء وأدارت وجهها ببؤس. شعرت أنها تبدو مذنبة وأحست بيده تمتد حول خصرها ثم سحبها فجأة.

قال لها بصوت ملؤه اليأس: كنت تكذبين، أعلم ذلك، ألا تريدين الاعتراف بذلك الآن؟

ارتدّت ايزوبيل نحوه وأجابته: عندما كنت تعانقني أليس هذا ما تقصده؟

ـ أجل عندما كنت أعانقك الآن بالضبط.

كان صوته قوياً وبارداً فأحست ايزوبيل بألم بين ضلوعها. ضغطت بيدها على جبينها وأحست بالغرفة هادئة جداً وبالرجل الواقف قربها جامداً.. علمت أن نظره لم يغب عنها قط. أخيراً ابتعد عنها غاضباً ثم قال لها بكره ونفور:

ـ انسي ذلك، ربما كنت على خطأ. لم يكن جديراً بي أن أفعل ذلك.

رفعت ايزوبيل وجهها نحوه والقلق والاضطراب يعميان فكرها وسألته: لماذا فعلت ذلك؟

تطاير الشرر من عينيه وأجابها باستهجان وسخرية:

ـ ظننتك امرأة مختلفة، ألم تلاحظي ذلك؟

شعرت كأنه طعنها بخنجر في قلبها ففقدت القدرة على الكلام. أخيراً سألته بصوت هادىء: ماذا تعني بذلك؟

ـ تريدين أن أهجىء ذلك لكِ؟ حسناً.

هز كتفه باستهجان: عانقتك لأنني أريدك. فكرت أن ذلك كان واضحاً جداً. و...

أدارت ايزوبيل وجهها عنه وقالت: أدرك بماذا فكرت، كان علي إيقافك عند حدك فوراً.

ـ حسناً ولماذا لم توقفيني عند حدي؟

شعرت بالغضب وبضيق في التنفس: لأن ذلك لم يحدث معي من قبل، لم أدرِ ماذا أفعل و...

أجابها بصوت قوي غاضب: «بل كنت تعلمين جيداً ماذا تفعلين، لا تكذبي، ولا تحاولي إقناعي بأنك عديمة الخبرة. علمتِ ماذا أريد وكنتِ تريدين ذلك أيضاً».

احمرّت عينا ايزوبيل من الغضب وأجابته بسرعة:

ـ ليس ذلك صحيحاً. لم أكن مستعدة، فاجأتني بتصرفك. كما قلت، أنت أخطأت لأنك اعتقدتني امرأة أخرى. لم تعانقني لأنك تريدني أنا بل عانقتني لأنك كنت تقوم بصفقة تجارية. إذا قبلت ولم أقاوم كنت ستقرضني المال الذي أحتاجه، أليس هذا ما كنت تريده؟

توقفت ولكنه ظل ساكتاً... ربما لا يريد أن يعترف بصفقته التجارية القذرة.

ضغطت على يديها وأضافت بحدة: ربما علي تهجئتها جيداً الآن: لست من أولئك النساء اللواتي يذهبن معك إلى الفراش مقابل عشرة آلاف استرليني أو حتى مقابل عشرة ملايين. أفهمت.. والآن من الأفضل أن أنصرف.

ـ إذن افعلي ذلك لأنك تريدينه. لم أتكلم قط عن صفقة. المسألة أنني أريدك.. أما المال فلا قيمة له في مثل هذه الأوضاع، ولا يهمني خسارته.

أجابته بغضب: «إنني أهتمّ».

ابتعدت عنه وعندما أراد رفع يده نحوها قالت له بحدّة: لا تلمسني أبداً فأنت تثير اشمئزازي.

لم يجدر بي قول ذلك، هذا ما قالته لنفسها عندما رأت عضلات وجهه تتقلص ونظراته تتجهم. ولكنها في الواقع ودت لو تمزق وجهه بأظافرها، غير أنها تمالكت نفسها.

قال لها ببطء وازدراء:

ـ قلت لك إنك تجاوبت معي، هل الإعتراف بذلك صعب؟ بالنسبة لامرأة تبدو عذراء مسكينة، أرى أن تجاوبك كان سريعاً. لماذا تتقدمين إلى الباب؟ لماذا لا تعودين معي؟

أطلقت ايزوبيل صرخة قوية وراح فمها يرتجف.

ـ قد يفيدك تغيير الجو. ما رأيك بهذا المكان هنا؟

رددت ايزوبيل بغضب: «حذار مما تقول».

اقترب منها وهو يبتسم بازدراء: آنسة سانت ايوين، لماذا لا تأتين إلى هنا وتدعيني...

ضربته ايزوبيل بقبضة يدها ضربة قوية وتراجعت إلى الوراء أما هو فرفع يده ببطء إلى خده حيث ظهرت علامة حمراء سببتها أظافرها على ما يبدو. تفرّس في وجهها متجهم العينين ثم ما لبث أن ابتسم بازدراء:

ـ أنت مثل هرة صغيرة.

ابتعد عنها واتجه نحو المدفأة. كانت ايزوبيل ترتجف من الغيظ والغضب ومن الحياء والارتباك.. راحت تنظر إلى ظهره وتعد الثواني التي بدت بلا نهاية. أدركت أن عليها إما الانصراف وإما الاعتذار فهو رغم حدة كلامه لم يعاملها بعنف. صدرت كلماته غصباً عنه وكأنه يكره نفسه.

ارتدّ إليها وقال لها بهدوء:

ـ إنها المرة الثانية التي تضربني فيها امرأة، في المرة الأولى كانت الظروف جادة وخطيرة أحب إخبارك بها.

فتحت ايزوبيل فمها لتقول له ما يخرسه ولتستطيع الخروج من الغرفة ولكنها لم تقدر على الكلام، بل ظلت رغم إرادتها مسمّرة في مكانها. بدا وجهه قاتماً وصوته هادئاً، ولكنها شعرت أن انفعاله قوي وظاهر.

أردف: «كان للمرة الأولى انعكاسات خطيرة لذلك وقفت أمام المحكمة».

اتسعت عينا ايزوبيل وقالت له: ماذا؟

رفع رأسه نحوها وتابع:

ـ كانت التهمة الرئيسية الاغتصاب. كان ذلك كذباً وافتراء فالمرأة المعنية رفضت الشهادة بذلك.

استوعبت ايزوبيل كلامه ورأت عينيه تنظران إليها كأنه ينتظر جواباً منها، ترددت ثم أجابته بعصبية: «لماذا تخبرني بذلك؟».

ابتسم:

ـ حدثتني عن نفسك فلماذا لا أحذو حذوك؟ سأخبرك بالنتيجة الأخيرة إذا أردت: حكم علي بسنتين من السجن حُسمت منها سنة بسبب حسن سلوكي.

ـ أنت؟ كنت في السجن؟ لا أصدق ذلك.

راحت تحدق إليه وإلى الغرفة.

ضحك ضحكة قصيرة وأجابها:

ـ أتقصدين أنني لا أبدو كسجين سابق؟ حسناً أنت على صواب ولكنني كنت محظوظاً فقد كان لدي أصدقاء ساندوني ولدي كذلك مال ساعدني أيضاً.

انحنت ايزوبيل إلى الأمام وهي لا تصدق ما سمعت: «ماذا كانت التهمة؟».

ابتسم وأجابها: ألم أقل لك؟

كانت عيناه متجهمتين ووجهه شاحباً. تلاقت أنظارهما فترددت ايزوبيل ووجدت شيئاً غريباً في تصرفه. تكلم كأنه يقوم بنوع من التحدي فارتجفت: «هل تخبرني الحقيقة؟».

ـ اوه! أجل.

ـ لماذا تخبرني ذلك؟ لا أكاد أعرفك.

تقدم قليلاً نحوها: «أردت أن تعرفي من أكون وماذا أنا؟».

ـ إذن أخبرني هل كنت مذنباً كما اتهمت؟

ـ حكمت علي المحكمة بأنني مذنب.

نظرت في عينيه: «لكنك كنت بريئاً، لم تفعل ذلك؟ لا تقدر على فعل

ذلك، هذا ما قصدته عندما قلت إنك تريد نسيان الماضي. أردت نسيان ذلك لأنه حُكم عليك بشيء لم تفعله أليس كذلك؟».

استغربت لأنها تفتش له عن عذر...

أجابها بهدوء وهو ينظر إلى البعيد: أرى أنك تشعرين فجأة ببعض الثقة، أكره تخييب ظنك. سأرد على جوابك ولكن ردي قد لا يكون مقنعاً كما تتوقعين. ففلاسفة الأخلاق يريدون منا أن نقبل: أن الرغبة في القيام بالجريمة تجعل من الإنسان الراغب مذنباً كأنه ارتكب الجريمة. فإذا كانت هذه هي القضية إذن فأنا مذنب حقاً كما اتهمت، أردت قتلها لكنني كنت أحبها كثيراً.

تعجبت ايزوبيل لأنها شعرت بغيرة مفاجئة من هذه المرأة المجهولة، كان ينظر إليها وقد انعقد حاجباه.

أدار وجهه لحظة.. بدا متردداً.. كأنه شعر بالندم بسبب إقدامه على هذا الاعتراف الغريب.

ـ تريدين الذهاب؟ حسناً.. سأجلب لك معطفك.

اختفى في الغرفة الأخرى وراحت ايزوبيل تراقبه. لم تستطع معرفة شعوره لكنها تعلم جيداً أن كل ذرة من حواسها تقول لها: إنه بريء.

لماذا أخبرها بكل ذلك؟ ألأنه أراد منها معرفة أسوأ ما عنده أم كان ينتظر منها أن تشعر بالصدمة والخوف فتهرب بعيداً وتتحاشى رؤيته مرة ثانية؟

ضغطت بيدها المرتجفة على جبينها وبدا كل شيء يسير بسرعة هائلة. شعرت بأنها موجودة في قطار سريع لا تقدر على النزول منه.. وكان القطار يسير في الظلام.

لم تشعر بالخوف أو التردد كلياً بل أرادت فقط أن تظل في ذلك القطار السريع وتدعه يقودها إلى الظلمة. تركت يدها تهوي... هل كانت ستشعر بذلك لو لم يعانقها؟

عاد والمعطف في يده فوضعه حول كتفيها. ثم قال لها: أريد رؤيتك مرة ثانية.

قال ذلك ببرودة ومن دون تأثر كأنه ينتظر رفضاً وازدراء منها.

«أريد رؤيتك ثانية» رنت تلك الكلمات في أذنها بسرعة.

التقت عيناه بعينيها فرأت فيهما بريقاً غريباً غيّر فجأة كل ملامح وجهه. ابتسم: كم تبدين شريفة وطاهرة في بعض الأحيان!

فتح الباب وضغط على زر المصعد وسألها: «متى ستعودين إلى المنزل؟».

ـ غداً..

نظرت ايزوبيل إلى البعيد... يجب عليها مقابلة الطبيب الاختصاصي في الصباح.

ـ سأتكلم معي... لدي بعض الأعمال مع جون شو.

وصل المصعد فهمت بالدخول إليه ولكنها تذكرت أولى كلماته فنظرت إليه وقال له بتردد: أرجوك! المال، أرجو منك عدم ذكره أبداً بعد الآن. إذا نسيت أنت شخصياً ذلك فسأكون ممتنة لك.

قال بصوت واضح عندما وقفت ايزوبيل في وسط المصعد: سأجرب ولكن ليس لدي كفاءتك لأنسى الأشياء بسرعة.

تقع عيادة الطبيب ستيفنسون في شارع «هارلي» في الطابق الأول من بناء فخم مدخله واسع وأنيق.. في وسط المدخل بعيداً عن الأنظار غرفة الاستقبال ومكتب السكرتيرة. توقفت ايزوبيل فرأت الباب يُقفل خلف أحد الزبائن.

شعرت فجأة بضيق في التنفس، فأسندت جسمها إلى الحائط. لم تدرِ كيف دخلت إلى غرفة المعاينة. بعد فحص دقيق وبطيء، قال لها الطبيب: «آنسة سانت ايوين، أعتقد أن هناك ما يجب عليك معرفته».

توقف قلبها عن الخفقان فظنت أنها مريضة جداً بسبب ذلك الحادث الذي أفقدها ذاكرتها ولكنها كانت مخطئة في كل تخميناتها لأنه قال لها:

ـ آنسة سانت ايوين، هل حدث معك شيء جديد في حياتك في المدة الأخيرة، أعني من الناحية العاطفية؟

لم تفهم في بادىء الأمر ماذا يعني... ظنت أولاً أنه عنى بذلك موت زوج أمها، ثم انتقل تفكيرها إلى الليلة السابقة. أخيراً أدركت أنه يعني: هل هي واقعة في غرام أحد؟ هل لديها حبيب؟

فكرت بحزن أنه لم يفهم وضعها. أخبرها بعطف وتشجيع عن «تصرف المراهقين الطبيعي». وقفت أمامه هادئة، وديعة كطفل لا يدري ماذا يقول ولكنه يريد الصراخ عالياً. ظنت أن كل شيء سيظهر على حقيقته في الوقت المناسب ولكن ذلك لم يحدث، أحست بغضب غريب لأنها ما تزال فاقدة الذاكرة. فكرت: أريد أن أعرف، أريد أن أعرف، إن ما أشعر به ليس مخيفاً فحسب بل وحشياً. كيف لي أن أنسى شيئاً كهذا في الوقت الذي على حياتي كلها أن تتغير؟ حاولت ضبط أعصابها وأجبرت نفسها على الخروج من غرفة المعاينة والنزول على السلالم إلى الخارج.

فكرت: من هو ذلك الشخص الذي ملك قلبها ونسيته؟ هل كان بوليوس؟ ألهذا السبب تشاهد عينيه في أحلامها؟ ألهذا السبب كرهها؟

* * *

٤ ـ من أجل عينيك

اصطحبها اليوت ريتشاردسون من الفندق بسيارته الـB.M.W السوداء الواسعة. أخذت ايزوبيل تنظر من النافذة إلى الشوارع فبدت لندن رمادية، كئيبة، شعرت أن فكرها شبيه بهذا الجو..

نظر فجأة إليها، ومن دون أن يتكلم أدار المسجّلة فعمت الموسيقى في أجواء السيارة، كانت أوبرا لموزارت. راق لها ذلك وأراح نفسيتها قليلاً.

عندما وصلت الموسيقى إلى نهايتها، قال لها أخيراً: «أنتِ هادئة كثيراً».

فتحت عينيها فوجدت لندن وراءها.

ـ أنا آسفة، أشعر ببعض التعب، أين نحن؟

ـ قرب أوكسفورد، يمكننا التوقف في مكان للاستراحة ولتناول طعام الغداء وبعد ذلك للقيام بنزهة على الأقدام إذا أردتِ. هل أكلت؟

ـ لا، لم آكل. ولكنني أعرف أنك مشغول، وهناك أعمال بانتظارك. لا أريد إلهاءك وإضاعة وقتك.

ابتسم وقال لها: «لو كنت فعلاً مشغولاً لما اقترحت عليك ذلك. سوف نتوقف قرب بورفورد».

توقف أخيراً أمام مطعم قديم جميل. كان هناك حديقة يمر قربها جدول صغير، تسبح فيه بجعة بيضاء أخذت تراقبهما.

ابتسم اليوت وقال لها: هي تريد سندويش، في الصيف يطعمها كل الزبائن أما في الشتاء فيجلس الجميع في الداخل. حسناً سيكون السندويش

مناسباً الآن.

كان المطعم فارغاً تقريباً، إذ ليس فيه سوى شخصين. وجد اليوت لهما طاولة هادئة في مؤخرة الصالة تطلّ على الحديقة فالمكان دافىء وهو أفضل من الجلوس خارجاً في الهواء البارد.

ـ ماذا تحبين أن تشربي؟

ـ شكراً، كوباً من المرطبات.

اختفى اليوت.. ثم سمعت صوته وهو يطلب المرطبات والسندويش.

نظرت ايزوبيل إلى الخارج، كان الجدول يفيض بالماء ورأت البجعة تتحرك إلى الوراء وتحاول عبثاً التوقف لالتقاط بعض فتات الخبز من دون أن تقدر.

نظرت ايزوبيل إليها وراحت تبكي بصمت. كانت الدموع تنحدر على وجنتيها ثم على المائدة، وجدت ذلك سخيفاً ولكنها لم تقدر أن تتوقف عن البكاء.

شعرت بذراع تلتف من حولها.. حاولت أن تحني رأسها فتساقط شعرها وأخفى وجهها. لم يقل شيئاً بل ترك يده على كتفيها، وأخيراً عندما جفّت دموعها، ناولها محرمة بيضاء. جففت عينيها واستعادت أنفاسها وهي مرتبكة جداً.

عندما رفعت نظرها إليه قال لها بلطف: الآن، تناولي هذا السندويش وعندما تشعرين بالتحسن أخبريني لماذا تبكين؟ لأنني عادة لا أحاول تحطيم الناس عندما أدعوهم إلى تناول الطعام.

ـ أنا آسفة، تصرفي سخيف وكل ما فعلته هو تبليل محرمتك.

قضمت قضمة من السندويش.

ـ لا أوافق أبداً، فأسوأ شيء قد يفعله المرء هو حبس الدموع. أفكر غالباً أن العالم سيكون أفضل حالاً لولا الأعراف التي تمنع الرجال من البكاء. هذا لا يعني أنني سأبكي الآن، لكن إذا كنت تريدين البكاء مرة ثانية فلا تترددي لأنني لن أعترض.

ابتسمت ايزوبيل، ثم تابعت قضم السندويش وما إن انتهت حتى

أرجعت ظهرها إلى الوراء وأسندته إلى طرف المقعد ورفعت شعرها الكثيف عن وجهها: ها أنا أفضل حالاً.. لم يحدث شيء.

ظل يراقبها ثم سألها بلطف: لماذا بكيت؟

ـ كنت أنظر إلى البجعة فوجدتها رائعة عندئذ بدأت أبكي. لم يكن هناك سبب خاص.

رفع يده عن كتفيها وقال بلطف: أنت متعبة ومتوترة الأعصاب كثيراً.. أعتقد أن تصرفي معك ساهم في ذلك، أريد الاعتذار منك.

ابتسمت: ليس هذا هو السبب، لا شأن لك بذلك ولم يكن ذلك أيضاً بسبب موت زوج أمي. السبب بسيط كما قلت لك.. أحياناً أشعر بفظاعة وضعي فأنا لا أتذكر شيئاً. أحصل فقط على معلومات بسيطة من ماضيّ، وفقاً لما يقصه علي الآخرون.. بعض المعلومات المبعثرة، المهملة، قطعة هنا، وأخرى هناك. ثم اكتشف أشياء جديدة لم يخبروني بها.. وعندما أسألهم لماذا كتموا عني بعض الأمور يقولون إننا نفعل ذلك من أجل سلامتك.. هذا مقرف، مقرف جداً وهو يشعرني أحياناً أنني سأصاب بالجنون.

كان ويستمع إليها بانتباه: هل أخبرتِ طبيبك بهذا؟

ـ جرّبت مرة أو مرتين، فوصف لي أنواعاً جديدة من المسكّنات توقفت عن تناولها... ربما كان على حق، لم أستعملها منذ بضعة أيام، وها أنا أبكي على أكتاف الأغراب في المطاعم.

ابتسمت قليلاً وابتسم لها هو أيضاً برقة فأضاء الضحك عينيه.

ـ حسناً! لم تبكي على كتفي، علاوة على ذلك، لا مانع عندي إذا شعرت أنك بحاجة إلى الاتكاء عليها فكتفي عريضة كما ترين، وأنا لست بالضبط غريباً.

رفعت ايزوبيل بصرها إليه وأجابته: لا، فأنت لست كذلك. لكن ليس من الضرورة إزعاجك بكل ذلك، فهذا لا يعنيك.

أجابها بصوت واضح:

ـ أستطيع جعل ذلك يعنيني. ماذا قصدت عندما قلت إنهم يعطونك معلومات مجتزأة؟ هل ذلك يعني أنهم أعطوك معلومات ناقصة عن أشياء يجب أن تعرفيها؟

نظرت ايزوبيل إلى البعيد: أشعر أحياناً أنني تذكرت صورة كل ما فيها متناسق ثم أرى فجأة أن الصورة غير كاملة، فأرتبك ولا أدري ماذا أفعل. كنت محقاً ليلة أمس عندما تكلمت عن الستائر والأبواب والنوافذ الموصدة. لكنها تهمني كثيراً. إنها ماضيّ الذي أريد أن أتذكره.

توقفت فجأة لأنها أدركت ماذا قالت فحاولت إبداله في اللحظة الأخيرة... كانت على وشك أن تقول: أريد منه أن يعود.

زاغت عيناها لحظة وأضحت ترى بصعوبة وجه اليوت.

قال لها بهدوء وعيناه لا تفارقان وجهها: لماذا لا تفتشين عنه؟

ـ أنا آسفة، ماذا قلت؟

ـ قلت لماذا لا تفتشين عن ماضيك؟ ألم تخطر بذهنك هذه الفكرة؟

ـ أفتش عنه؟ كيف؟ وأين؟

أجابها بصوت هادىء بطيء: حسناً، يمكنك البدء بالعودة إلى المكان الذي وقع لك ما وقع... ألا تستطيعين الذهاب إلى منزلك القديم، إلى المكان الذي حصل فيه الحادث؟

صرخت ايزوبيل بصوت منخفض: أستطيع، بالتأكيد أستطيع ذلك، لم أفكر في هذا قط.. ما كان والدي ليسمح لي بالذهاب.. كان يغضب عندما أتكلم عما حدث..

ـ لن يستطيع منعك بعد الآن.

أعادت هذه الكلمات ايزوبيل إلى واقعها، فأدركت أن ذلك صحيح، فهي حرة بالذهاب إلى حيث يحلو لها، تقدمت نحوه لا شعورياً ولامست يده وقالت له بحرارة: أشكرك، أنت ذكي جداً. أعتقد أنك على حق وأعتقد أن علي العمل بنصيحتك.

وقف وابتسم ابتسامة جافة: «إنني مسرور بمساعدتك. لو لم أكن

مصرفياً لاتخذت مهنة ثالثة، ما رأيك بمستشار؟ هل تعتقدين أنني سأفلح بذلك؟ والآن من الأفضل أن نذهب، سيقفلون المطعم على ما أعتقد».

ـ حسناً، انتظر يجب ألا أنسى ذلك.

قطعت ايزوبيل ما تبقى من السندويش وخرجا إلى الحديقة حيث كانت البجعة تنتظر بفارغ الصبر. شعرت ايزوبيل بالامتنان لها فأرادت مكافأتها..

توقفا في طريقهما إلى المنزل وذهبا في نزهة صغيرة سيراً على الأقدام. بدا المنظر رائعاً. راحت ايزوبيل تتأمل المنظر الرائع وتأخذ نفساً عميقاً من الهواء المنعش البارد. كان الهواء يلفح وجهها ويورّد خدّيها فأحست أنها تغيرت والحقيقة أنها لم تكن تشعر بهذه الثقة بالنفس قبل لحظات.

كان اليوت صامتاً، لم يقل شيئاً بل بدا غارقاً في أفكاره.. كان ينظر إلى الأفق البعيد، وليس إلى المنظر. راحت تتأمل قامته الطويلة القوية التي بدت قاتمة أمام السماء الرمادية الشاحبة.

في طريق عودتهما إلى السيارة سألته بفضول: قلت لي: مهنتك الثالثة. ماذا كانت مهنتك الأولى؟ ألم تكن منذ البداية رجل مصارف.

أجابها بإيجاز: «لا، كنت محامياً حتى حدثت الظروف التي تكلمنا عنها ليلة أمس».

أمسك بيدها ليقودها بعيداً عن الحفرة العميقة التي كانت في طريقهما.

ـ قلت لكِ أفضل قطع كل ما يعيد إلي الماضي. لكن بالطبع هذا ليس ممكناً دائماً.

توقفت ايزوبيل فجأة وسألته وهي تنظر إلى عينيه: هل شعرت بالألم والمرارة؟ ما حدث حطم حياتك كلها كما أعتقد؟

أجابها بحذر: «نعم حدث لي ذلك».

ترددت ايزوبيل عندما لاحظت أنه قادر على وضع نفسه خلف حاجز لا يمكن اختراقه. ولكنها تريد معرفة المزيد عنه فسألته: لماذا لم تشهد؟ لماذا لم تتكلم تلك المرأة؟ لماذا لم تأتِ وتقول الحقيقة؟

أجابها ببرودة: «يجب أن تساليها ذلك، ليس لدي أي فكرة... أصبح الطقس بارداً جداً، فهل نعود إلى السيارة؟».

رجعا بصمت. حاولت ايزوبيل استراقَ نظرة إليه ولكنه ظل يتحاشاها.. أرادت أن تتكلم وأن تطرح عليه أسئلة ولكنها لم تتجرأ. عندما وصلا إلى السيارة، استجمعت كل شجاعتها ونظرت إلى وجهه وسألته:

ـ أنت تتألم وتشعر بالمرارة، لاحظت ذلك منذ المرة الأولى التي شاهدتك فيها وأنت إلى ذلك لطيف كثيراً معي، لذا أتمنى لو أستطيع مساعدتك.

انحنى إلى الأمام وفتح باب السيارة وأجابها بمرارة: التمني لا يغيّر شيئاً للأسف.

ـ أما زلت تحبها؟

طرحت عليه السؤال قبل أن تفكر فيه.

ولكن ذاك السؤال انطلق منها عن غير قصد وبقي معلّقاً للحظة في الهواء الصامت. كانت ايزوبيل تنظر إليه وهي خائفة مما قالت.

تجهمت عينا اليوت فأجابها بهدوء وهو يمسك باب السيارة:

ـ أكرهها، وإذا ما قابلتها مرة ثانية فسأعمل على تحطيمها. هل يمكننا الانطلاق الآن؟

تساقطت الثلوج طوال الليل. وفي الصباح، عندما سحبت ايزوبيل الستائر وجدت أن كل شيء قد تغير.. فكل الطرقات تكسوها الثلوج. الجدار الكبير الذي كان يحيط بالحدائق من كل الجوانب والذي كان يبدو عادة قاتماً جداً كجدار السجن طمرته الثلوج فاختفى. كل شيء في الخارج مغمور بالثلج.

فكرت عندئذ في ذلك العناق وتذكرت ما قال لها اليوت: التمني لا يغير شيئاً للأسف.

فكرت أن هذا الرجل يحطم نفسه، فهل يعلم ذلك؟ ولكنها لم تقل شيئاً في تلك الليلة ولم تستطع النوم. ترامى إلى فكرها أنهما متشابهان. أليست هي أيضاً تحطم نفسها بتصميمها على معرفة الماضي؟ كلاهما يفعل ذلك على

طريقته الخاصة.

جعلتها هذه الحقيقة تشعر بعدم الصبر والغضب. أرادت التحرر من هذا الكابوس، إنها تتوق إلى ذلك وهي تريد التحرر منه دفعة واحدة وإلى الأبد. وكم تتمنى لو يتحرر هو أيضاً لأنه الآن يبدو كرجل لا يزال ينفّذ حكماً قضائياً.

ابتعدت عن النافذة وذهبت بأفكارها إلى البعيد. وتذكرت للحظة، عندما كانت في شقته، وعندما كانت تسير معه أيضاً في الحقل بين أغصان الأشجار اليابسة حيث شعرت بمذاق الحرية، هل شعر هو بذلك أيضاً؟ أحست آنذاك بأن أفكارها ومشاعرها تفيض بالمستقبل، أفكار غير مترابطة تدعوها إلى ترك الماضي بعيداً. شعرت بأن قلبها توقف عن الخفقان ثم عاد فجأة إلى الخفقان من جديد وراحت الدماء تسيل في عروقها. شعرت بأنها استفاقت من سبات طويل أو كأنها كانت واقفة على قمة جبل عال، تنظر إلى العالم تحت قدميها.. عالم لا تعرف تحديده بالضبط.

نظرت في المرآة، إلى وجهها الشاحب فتذكرت أنه قال لها إنه سيتصل بها اليوم قبل عودته إلى لندن. اعترفت بينها وبين نفسها بأن هذه الحقيقة البسيطة تملأ قلبها بسعادة كبيرة. استرجعت أفكارها بغموض: يجب ألا أحبه كثيراً، أو أتأمل أي شيء، أو أن أفكر أنني واقعة في الغرام أو أن أفكر في عناقه وفي لطفه. يجب ألا..

ابتعدت بسرعة عن المرآة وقررت أن تكون حاسمة وواقعية، فذلك سيعيدها إلى حواسها بسرعة. أولاً، عليها الذهاب لرؤية جون شو ثم عليها التوجه إلى مصرف البلدة الذي كان يتعامل معه زوج أمها لتجرب إذا كانوا يقبلون إقراضها المبلغ الذي تحتاجه بوبي.. ثم عليها الذهاب بعد ذلك مع برنيس لإلقاء نظرة على أغراضها، فبرنيس راحلة اليوم..

فكرت بسخرية: لا مكان للأحلام بعد الآن.

وصلت في تمام الساعة العاشرة إلى مكتب جون شو وما إن حلت الساعة العاشرة والنصف حتى أنهيا كل المعاملات الضرورية التي يجب إنجازها. في

الساعة الحادية عشرة وصلت إلى مكتب مدير المصرف وتفاجأت عندما أدركت أن المقابلة مع المدير تسير على ما يرام.

وجدت أن المدير اقتنع بكلامها أكثر من اليوت ريتشاردسون. بيد أن هذا الرجل ليس مخيفاً على الأقل وهو متفهم وعطوف فقد استمع إلى حديثها ثم قال لها إنه بحاجة إلى التكلم مع جون شو ولكن بالنهاية قال لها إن موقف المصرف سيكون إيجابياً.

امتقع وجه ايزوبيل فهبت واقفة بسرعة وقالت له بحرارة: «أشكرك كثيراً، لا يمكنني أن أشرح لك الارتياح الذي أحدثه جوابك في نفسي. كنت قلقة كثيراً وخائفة».

حدد لها موعداً لمقابلته بعد أسبوع فانصرفت ايزوبيل وهي تشعر بأنها ترقص في الهواء.

بوبي على حق، لم تكن المسألة صعبة. شعرت بالفخر لأنها نجحت وفكرت في الاتصال ببوبي فوراً. لكن عندما اتصلت وجدت أن بوبي غادرت الفندق في نيويورك من دون أن تسجّل أي رقم للاتصال بها. أقفلت ايزوبيل الخط فلا مشكلة في ذلك. بوبي سافرت على الأرجح إلى باربادوس.. لاحقاً تتصل بها وتخبرها بالأنباء السعيدة. صعدت السلالم إلى غرفة زوج أمها وهي تشعر بالحيوية. اقتربت من برنيس التي نظرت إليها وابتسمت سائلة: حسناً، ماذا حدث لك؟ أحب معرفة ذلك لأنك تبدين لي شخصاً آخر.

توقفت ايزوبيل التي استجمعت قواها قبل أن تجيبها: «أشعر أنني إنسانة جديدة».

ابتسمت برنيس وسألتها: هل هناك أي شيء بخصوص ذلك السيد ريتشاردسون، سمعت أنه أقلّك أمس بسيارته من لندن؟

استدارت ايزوبيل بسرعة، وأجابتها: لا، ليس هناك شيء. مجرد أعمال.

أجابتها برنيس بلهجة ذات مغزى: أرى ذلك.

وتابعت: إذن، أنتِ مصممة على إنجاز كل ذلك؟ إنها أسوأ مرحلة..

مرحلة التصفية، لكن لدى الانتهاء منها يشعر الناس بالتحسن والراحة.

أجابتها ايزوبيل بحزم: سنقوم بهذا العمل معاً. كان هذا العمل يخيفني، لكن الآن يجب إنجازه.

توقفتا ظهراً للاستراحة وتناول بعض السندويشات والقهوة. نظرت ايزوبيل إلى ساعتها وقالت: لم يبق الآن سوى مكتبه.

- تركت المفتاح على الطاولة، أعتقد أنه عليك القيام بهذا العمل بمفردك لأن علي أن أوضّب أغراضي قبل أن يفوتني قطار الثالثة والربع.

نظرت إليها ايزوبيل وأمسكت يدها بحرارة وقالت لها:

- طبعاً، أشكرك كثيراً برنيس سأنهي ما تبقّى بمفردي.. سأفتقدك كثيراً.

ابتسمت برنيس: سأكتب لكِ.. أريد أن أستريح لمدة وجيزة قبل أن أنخرط في وظيفة أخرى.. أوصيك بالانتباه إلى نفسك.

- سأنتبه لنفسي..

- أشكرك كثيراً على كل شيء.

بعد ذهاب برنيس عادت ايزوبيل بهدوء إلى المكتب فأخذت المفتاح وفتحت الباب. كانت غرفة المكتب واسعة يتوسطها مكتب خشبي تمتد فوقه رفوف ملأى بالكتب خلف واجهات زجاجية. إنها تتذكر هذا المكتب منذ طفولتها، كان هناك التقارير الطبية وجوازات السفر، وتاريخ العائلة.

لن تستغرق الجوارير السفلى الأخيرة وقتاً طويلاً لأن زوج أمها كان رجلاً نظامياً فكل الأوراق موضوعة بعناية داخل الملفات. وضعتها ايزوبيل في الصناديق بالترتيب. ستعيد قراءتها بالتفصيل فيما بعد.

فتحت أخيراً الجارور الرئيسي. كان فيه بعض الرسوم والملصقات وبعض الأقلام والمماحي ومشابك الورق، وظرف قديم فتحته فوجدت في داخله ثلاث خصل من شعر الأطفال. عضت ايزوبيل شفتها وهي تتساءل لمن يا ترى خصل الشعر هذه؟ أهي لأهل زوج أمها، أم لأهلها هي؟.. ترقرقت الدموع في عينيها. ولكنها تجاهلتها..

وجدت أخيراً جارواراً صغيراً تناولت مفتاحه الصغير وفتحته، وهناك وجدت داخله بعض بطاقات الميلاد التي رسمتها بنفسها والتي قدمتها إلى زوج أمها عندما كانت صغيرة. بعد ذلك رأت بعض البطاقات وبعض الصور. كانت تجهل معظم الأشخاص الموجودين في تلك الصور، ربما هم أصدقاء زوج أمها في أيام صباه. عرفت ذلك من الثياب التي كانوا يرتدونها. ثم لفتت أنظارها إحدى الصور فتناولتها وراحت تنظر إليها عن كثب.. إنها صورة التقطت في حديقة المنزل في ديڤون، كان فيها زوج أمها وأمها وهي شخصياً وبوبي. نظرت إليها بتمعّن فقدّرت أنها كانت آنذاك في الثانية عشرة من عمرها. وكان هناك أيضاً أربعة أشخاص: رجل وامرأة وولدان. شعرت بالجفاف في فمها فنظرت إلى الصورة الباهتة عن كثب، كان الرجل واقفاً إلى جانب أمها التي كانت تنظر إليه ضاحكة وكانت زوجته ممددة على إحدى كراسي الحديقة، وقد وضعت إحدى يديها على طرف ثوبها واليد الأخرى على العشب أمامها وظهر الولدان راكعين.. كان أحدهما في الرابعة عشرة ينظر مباشرة إلى الكاميرا، والآخر الأكبر سناً كان ينظر أيضاً إلى الكاميرا وقد ظهر الغضب على محيّاه.. ارتجفت يدها فوقعت الصورة على الأرض. إنه يوليوس وأخوه ادموند. ووالداهما.. انحنت والتقطت الصورة وهي تتمزق من الحسرة. نظرت إلى نفسها فوجدت أنها كانت جالسة القرفصاء في آخر الصورة، بدت فتاة صغيرة شعرها أسود مالس وناعم وكانت تنظر إلى يوليوس.

رفعت الصورة لتقربها من عينيها ونظرت إليها بيأس. إنه هناك، إنها صورته ولكنها لا تعني لها شيئاً. إنه طويل القامة، شعره أسود متساقط فوق جبينه.. على مقربة منه كتاب ممدّد على العشب.

ارتجفت وشعرت فجأة بقلق غريب فأرادت تمزيق الصورة ولكنها تمالكت نفسها وأدركت أنها ستندم على ذلك إذا تسرّعت.

وضعتها بسرعة في مغلف مع الصور الأخرى في أحد الصناديق. ماذا كانت تنتظر بعد كل ذلك؟ هل باستطاعة قطعة من الورق أن تعيد إليها

ذاكرتها وأن تعيده هو شخصياً؟ التمنّي لا يغيّر شيئاً لسوء الحظ، هذا ما قاله اليوت ريتشاردسون وهو على حق.

أرادت الآن الانتهاء من كل ذلك بأسرع وقت والخروج من هذه الغرفة والهروب من تلك الذكريات التي نتجت عنها من دون أن تعيد إليها ذاكرتها. أخرجت من الجارور الأغراض القليلة الباقية فوجدت بعض الرسائل التي كانت قد أرسلتها إلى البيت من المدرسة وبعض الرسائل الأخرى لبوبي، لم يكن هناك حاجة إلى فتحها وقراءتها. انحنت أخيراً لتضعها في الصندوق الأخير وفيما كانت تفعل ذلك وقعت منها على الأرض بطاقة التقطتها وما كادت تنظر إليها حتى عرفت خطها فتوقفت. كانت الكلمات موجّهة إلى زوج أمها وهي الآن أمام عينيها: «لدى استلامك هذه البطاقة، أكون قد رحلت. أرجو منك عدم التفتيش عني فأنا بخير وسعيدة. سأعود قريباً».

نظرت ايزوبيل إلى البطاقة بغموض ثم أدارتها إلى الجهة الأخرى فوجدت رسماً لبعض المنازل البيضاء، وساحة كبيرة. قرأت في أسفل البطاقة: ساحة الثورة ـ وهران ـ الجزائر. ووجدت في زاوية البطاقة طابعاً أجنبياً وعلامة بريدية غير مقروءة.

أدارت البطاقة تارة على وجهها وطوراً على ظهرها فلم تصدق ما ترى وما تقرأ. الجزائر؛ لم تذهب إلى الجزائر قط ولم تسمع بكلمة وهران، ولكن ماذا تعني هذه الرسالة؟ لماذا سافرت آنذاك؟ ولماذا طلبت من زوج أمها عدم ملاحقتها؟ هذا لا يعني لها شيئاً ولكنها تعلم الآن أنها كتبتها بخط يدها، وكل ذلك يعني شيئاً واحداً.

في السنتين اللتين أضاعتهما من حياتها لم تكن ساكنة في ديفون كما قيل لها بل كانت خارج البلاد في الجزائر، في شمالي افريقيا.

كذبوا عليها. إذن زوج أمها كذب عليها.. أطلقت صرخة يائسة. هل ستنتهي من هذا الظلام، ومن ذلك الجهل؟ ماذا حدث أيضاً في هاتين السنتين؟ وضعت البطاقة على صدرها وراحت تحاول مقاومة دموع

الغضب. أقفلت المكتب وهربت من الغرفة.

جلّ ما كانت تستطيع التفكير فيه في تلك اللحظات، هو أنها لن تقدر على البقاء بعد الآن في هذا المنزل مع ذكريات الماضي المشوّشة.. الماضي الذي لا يعني لها شيئاً. مشت في الممر ونزلت السلالم إلى الطابق الأرضي.. في هذا الوقت سمعت ضجة حادة وسمعت دقة ساعة الحائط ثم.. ثم رأت ايليوت ريتشاردسون واقفاً ينظر إليها.

* * *

ـ أنا أدرك ذلك... هل يمكنني النظر؟

كان واقفاً أمام النار في غرفة الاستقبال. بدا طويل القامة جداً يرتدي بذلة أخرى من تلك البذلات السوداء الأنيقة.

ترددت ايزوبيل وبالأحرى ندمت على الكلام الذي صدر عنها. بسبب الصدمة التي شعرت بها لدى اكتشافها البطاقة، أمام هذا الرجل البارد المتحفّظ والذي لا يمكن التنبؤ بنواياه. عندما التقت عيناه بعينيها، ابتسم بلطف وبحرارة غير منتظرة، فاختفت شكوكها وندمها وشعرت بالسرور لأنها أخبرته بذلك. مدت يدها ببطء وأعطته البطاقة القديمة، عندما تناولها لامست أنامله يدها.

راح ينظر إليها بصمت ثم أدارها إلى الجهة الأخرى وأخذ يقرأ رسالتها بانتباه. شعرت ايزوبيل أن تلك اللحظات من الصمت أطول من دهر... أخيراً رفع نظره فبدا بارداً ومتجهماً.

قال لها وهو يبتسم: كنتِ سعيدة وسليمة... هذا شيء مهم أخيراً.

ـ إنه لا شيء على الإطلاق. لا أصدق أنني كتبت ذلك، لو لم أرَ خطي بنفسي لما صدقت ذلك قط.

قال لها بهدوء: ألا يذكرك ذلك بأي شيء؟

هزت ايزوبيل رأسها فوضع اليوت الصورة على الطاولة، وبعد صمت قليل قال لها: جئت إلى هنا اليوم لأقدّم لك اقتراحاً وأعتقد أنه اقتراح صائب.

أدارت ايزوبيل وجهها نحوه. ورددت: «اقتراح؟».

ـ أخبرتك سابقاً أن عليك الذهاب والبحث عن ماضيك.. عليك العودة إلى ديفون وإلى المكان الذي وقع فيه الحادث.

توقف فشعرت ايزوبيل ببعض الحيرة.

ـ يجب كذلك أن أكون معكِ.

تلاقت نظراتهما كأنه ينتظر أن تقاطعه وتعترض. تملّكها العجب ولم تقل شيئاً، ثم أدار اليوت وجهه وتابع بصوت جاف: سآخذ عطلة لبضعة أيام فأنا شخصياً لم أذهب إلى هناك منذ مدة طويلة. سأقلك بسيارتي أما السكن فسيكون في منزلي وهناك سأحاول مساعدتك.

ـ نمكث في منزلك؟

ـ إنه مناسب.. فهناك مدبّرة المنزل وبعض الموظفين لذا لا مجال للقلق... أعتقد أن عليك القيام بذلك وأرى أن من غير المناسب أن تكوني وحيدة. يمكننا الذهاب غداً إذا أردتِ.

نظرت إليه ايزوبيل فإذا وجهه هادىء، ولكنها لسبب لم تفهمه شعرت نحوه فجأة بالامتنان.

رفعت بصرها إلى عينيه بفضول تستكشف ما فيهما فلم تجد شيئاً. سألته:

ـ لماذا تفعل ذلك؟

هز كتفيه وأجابها: لماذا لا أفعل ذلك؟ ربما أشعر أنني مدين لك بشيء.

ـ هل فعلت ذلك بسبب الوصية؟ أو المنزل؟

ابتسم فجأة وأجابها: «ربما من أجل عينيكِ، فعندما تنظرين إلي هكذا أشعر أنني أمتلك شهامة لم أكن أتوقعها...».

رفعت ايزوبيل بصرها إليه غير أكيدة من نواياه. فكرت أنه لسبب ما غيّر مجرى الحديث فالمديح هو نوع من الهروب ومحاولة لإخفاء شيء ما. كما أنه ينظر إليها بإعجاب فعيناه راحتا تتنقلان من وجهها إلى قامتها. عندئذ

تذكرت عناقه واستجابتها لذاك العناق فتوردت وجنتاها.

أمسك ايليوت يدها ورفع وجهها بلطف نحوه. وقال لها: «قولي نعم، أريد».

أجابته برقة وقد جفّ حلقها: «نعم...».

ـ حسناً!

أرخى يده عنها ببطء، وعاد إلى الوراء ونظر إلى ساعته: يجب علي الذهاب الآن، هل بإمكانك أن تكوني جاهزة غداً صباحاً في تمام الساعة التاسعة؟ لأنني لا أريد الذهاب في ساعة متأخرة بسبب تساقط الثلوج.

ثم توقف وسألها: هل فكرتِ من جديد في القرض الذي تحتاجينه؟

ـ لا بأس. سار كل شيء على ما يرام. ذهبت إلى المصرف في البلدة فوافقوا على إعطائي القرض.

فابتسم ايليوت وقال لها: أنا متعجب، لكنني مسرور جداً من أجلك.

ارتد نحو الباب وتابع: أراك غداً صباحاً في الساعة التاسعة. أجلبي معك كمية من الثياب الصوفية فمن المحتمل أن يكون الطقس قارساً.. آه! واجلبي كذلك جواز سفرك.

نظرت إليه ايزوبيل بدهشة: جوازي؟

بدت الأمور سريعة جداً بالنسبة إليها.

ـ أجل بالتأكيد.. إن لم نحصل على نتيجة في ديفون، فسنحاول البحث عنها في مكان آخر... في شمال افريقيا مثلاً...

أقفل الباب خلفه وذهب.

فكرت ايزوبيل بصورة لا مبالية أنها خطة مناسبة.. جلست إلى كرسي وهي تشعر بموجات من الإثارة. هل تقوم بعمل جيد بسماحها لرجل مثل اليوت بالدخول إلى حياتها؟ أليس من الأفضل لها أن تتركه خارج حياتها؟ إن هذا الرجل أشبه بزوبعة وهي عدا ذلك لا تعرفه أما قوة إرادته فتصيبها بالدوار. أكان بارداً أم جذاباً، متعالياً أم لطيفاً، فهي أكيدة من شيء واحد، اليوت ريتشاردسون رجل يعرف طريقه ويعرف ما يريد. هذه هي الحقيقة

التي لا شك فيها، أضف إلى ذلك أنها تعزّه وتحبّ صداقته وتثق به، فمنذ زمن بعيد لم تثق بأحد حتى بنفسها.

في تمام الساعة التاسعة وصل اليوت لاصطحابها. كان الطقس زمهريراً وكانت ايزوبيل تنتظره بقلق عند النافذة. تأملته عندما ترجل من السيارة، كان يرتدي ثياباً مختلفة تماماً: سترة جلدية مخططة وسروالاً قاتماً من الصوف. أظهرت هذه الثياب مقدار قامته الطويلة وقوة عضلاته. في هذه اللحظات لم تبد عليه سمات رجل المدينة الأنيق بل سمات الرجل القوي الخطير.

شعرت ببعض الاضطراب.. أدخلت شعرها الأسود الكثيف تحت قبّعة من الفراء غطت جبينها ثم ارتدت معطفاً أسود طويلاً أظهر شحوب بشرتها. عندما فتحت الباب تفرّس اليوت فيها ولما لاحظت علامات الإعجاب في عينيه السوداوين احمرت وجنتاها. نزع قفازيه ووضعهما لحظة في يده من دون أن يرفع نظره عنها. فجأة استدار وحمل حقيبتها ووضعها في الصندوق ثم ساعدها في الدخول إلى السيارة. حدّق إليها مبتسماً وقال لها: تملكني الإعجاب بمظهرك، فلم يخطر في ذهني أنني سأنقل في سيارتي هذا الصباح أميرة روسية. أشعر الآن أنه كان علي أن أمتطي جواداً وأضعك خلفي، وأعدو به في السهول الشاسعة.

تمتمت ايزوبيل: «أنت بدورك ترتدي مثلي». فضحك اليوت:

ـ عملياً إنها الصدفة، سيكون هناك برد قارص. سنضطر للقيادة عبر الضباب.

بدت الرحلة طويلة. أحست بالسعادة وبالدفء وبالهدوء داخل السيارة وراحت تنظر من وقت لآخر إلى اليوت الذي يحصر كل انتباهه في القيادة وفي مراقبة الطريق. وضع بعض الموسيقى وتكلما كصديقين فشعرت ايزوبيل بالاسترخاء. فكرت بغرابة فيما يحدث معها. في البداية بدا اليوت بارداً جداً أما الآن فتبدّل وأصبح بإمكانها التكلم إليه بسهولة.

عندما وصلا إلى مشارف ديفون انحرفا عن الطريق الرئيسية. لاحظت

بأن المناظر أصبحت أليفة لها.. نظر إليها اليوت: هل تعرفت إليها؟

ترددت، ثم قالت: أجل. فهذه القرية الأخيرة التي مررنا بها، كنا نأتي إليها عادة مرة في الأسبوع لنتبضّع منها. منزل زوج أمي يقع على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من هنا، أنظر، هذا المنعطف يؤدي إلى قرية «استون ديفروول».

تجاهل اليوت علامة الطريق وضاعف سرعته بعد المنعطف.

أشارت إليه بيديها بصورة عفوية فأمسك يدها وقال لها بلطف: ليس اليوم، ربما غداً. سنذهب اليوم إلى منزلي. يجب أن تستريحي أولاً ثم نتناول طعام الغداء ونضع المخططات ونجلس أمام المدفأة. هل يعجبك ذلك؟

ابتسمت له ايزوبيل بخجل وقالت: «كثيراً جداً».

ـ أريد أن ألفت نظرك إلى أن مديرة المنزل فضولية كثيراً، وهي سمسارة كبيرة تحب أن تزوج الناس. لم أجلب معي قط امرأة إلى هذا المنزل، وأظن أنها ستستنتج أموراً كثيرة.

توقف قليلاً وهو ينتظر أن تقول ايزوبيل شيئاً لكنها ظلت صامتة. كانت مشغولة بأفكارها الغبية وتمنت ألا تكون تخمينات مديرة المنزل خاطئة. نظرت من النافذة إلى البعيد. مهما كانت المشكلة مع تلك المرأة فهذا آخر ما تفكر فيه.

ـ حاولي تناسي هذه الأشياء الصغيرة التافهة، حسناً؟ سنتحاشى زيارة غرفة الأطفال القديمة والمناظر الكئيبة التي تذكرك بالأجداد وبأيام الطفولة. كانت هذه المرأة تهتم بعمي منذ زمن طويل وهي تعرفني منذ طفولتي. وقد حاولت مرات عديدة أن تزوجني.

توقف فجأة وتابع: «سنسلك الآن إحدى طرقات «دارتمور»، هناك حيث حصل الحادث. أليس كذلك؟ هل تمانعين؟ فأنا لا أريد إزعاجك».

هزت ايزوبيل رأسها: «لا، لا مانع عندي».

تبين لإيزوبيل أن نبرة صوته تغيرت وازداد توتره عندما انعطفت السيارة إلى الطريق التي أشار إليها. تمسك بالمقود بقوة وعيناه تراقبان

الطريق بدقة، كادت السيارة تنزلق مرة أو اثنتين ولكنه حافظ على رباطة جأشه وهدوئه، أما ايزوبيل فكانت تنظر إليه بفضول. وصلا أخيراً إلى بوابة عالية مصنوعة من الحديد المزخرف كانت مفتوحة على مصراعيها.. عبرها اليوت وأكمل طريقه وبعد أن قطع مسافة ميل انعطف فأطلّ عليهما المنزل بواجهته الطويلة المصقولة المبنية من الحجارة الرمادية الناعمة، وكان مبنياً على منحدر صغير يطلّ على الوادي.

انخطف نفس ايزوبيل أما اليوت فتوقف فجأة ونظر إليها قائلاً: إنه منزل رائع وجميل..

بعد صمت وجيز نظرت إليه فرأته يعضّ على شفتيه ثم ضغط بقدمه على دواسة الوقود فانطلقت السيارة إلى الأمام.

ـ يعود بناء هذا المنزل إلى القرن السابع عشر وواجهته إلى القرن الثامن عشر.

ـ أعجبني كثيراً.

ـ أستغرب كيف عشت في هذه المنطقة دون أن تقومي بزيارة هذا المنزل.. كان عمي موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية، ولم يكن يأتي إلى هنا إلا نادراً. لهذا ربما لم تلتق به.. هل زرتِ سابقاً هذا المنزل؟

ابتسمت ايزوبيل: «ليتني زرته.. إنه منزل جميل، سأزوره الآن وأتأكد إن كنت رأيته من قبل».

داس على المكابح ببطء ثم توقف أمام باب عريض مزخرف بالنحاس سرعان ما انفتح وخرجت منه امرأة صغيرة شعرها أبيض.

ـ ايزوبيل، هذه هي السيدة ديرنغ. سيدة ديرنغ أقدم لك ايزوبيل لاتيمر.

شعرت ايزوبيل أن المرأة تراقبها بعينيها البُنيتين بنظرات حادة كأنها تريد التعرف إليها بنظرة سريعة، ثم حوّلت بصرها إلى اليوت وابتسمت قائلة:

ـ ادخلي، ادخلي يا عزيزتي فالثلج يتساقط. لا بد أنك متعبة بعد هذه الرحلة الطويلة وسط الثلج الكثيف.. طوال النهار وهم يجرفون الثلج إلى

الوادي. تعالي قرب النار الآن، سأريكِ غرفتكِ فيما بعد.

ترددت ايزوبيل ونظرت إلى اليوت فأشار إليها بالدخول:

ـ سأدخل السيارة إلى الكاراج. أمامي عمل صغير لا بد من إنهائه أيضاً.

نظر إلى ساعته وتابع: سيدة ديرنغ. لا تنسي أن تعدّي لنا عشاءً لذيذاً فالساعة الآن حوالى الرابعة. سنلتقي في المكتبة لتناول كوب من الشاي في الساعة السادسة، ستدلك السيدة ديرنغ إلى مكان المكتبة.

ثم رحل.

تبعت ايزوبيل ببطء مدبرة المنزل التي سلكت مدخلاً واسعاً يطل على درج مصنوع من خشب السنديان وممر طويل.. راحت مدبرة المنزل تتكلم عن الطقس وعن حالة الطرقات وعن فرحتها الكبيرة بوجود السيد ايليوت في المنزل بعد غياب طويل. فتحت باب غرفة النوم فدخلت معها ايزوبيل إلى الغرفة. كانت النار مشتعلة في المدفأة وهناك رأت سريراً صغيراً ذا قوائم عالية عُلّق عليها قطع من القماش المطبّع الجميل.

توقفت ايزوبيل وهي تنظر إلى هذا السرير.

قالت لها مدبرة المنزل: بعد دقائق قليلة أجلب لك حقيبتك يا عزيزتي مع فنجان من القهوة. أرجو أن تعجبك الغرفة! غرفة الحمام خلف هذا الباب هناك، وإن أحببتِ الاستحمام فاستحمي لأن المياه ساخنة.. سأتركك الآن ففي هذه الغرفة كل ما قد تحتاجين إليه.

ـ أجل.. أشكرك كثيراً. إن الغرفة جميلة جداً.

حاولت ايزوبيل أن تجعل صوتها ثابتاً.. ربما شعرت مدبّرة المنزل ببعض الغرابة في نبرة صوتها ولكنها تجاهلت ذلك وتركت الغرفة بهدوء.

عندما أقفلت الباب وراءها تنهدت ايزوبيل وضغطت بيدها على رأسها. غطت عينيها بيديها وأرخت ربطة قبعتها. كانت الغرفة مضاءة بنور صغير خافت ولكنه بدا باهراً جداً بالنسبة إليها حتى كاد يعميها.. وأحست بالألم في كل أعضاء جسمها فجلست على كرسي وأحنت رأسها لتحاول

سحب أنفاسها.

تدريجياً، انحسر الضوء واختفى الألم فعضّت ايزوبيل على شفتيها وراحت تتأمل الغرفة حتى وقع بصرها على باب الحمام فشعرت بأنها تتذكر شيئاً ثم راحت تردد بانتباه هذه الكلمات: «الحمام إلى جهة اليمين. عندما تدخلين إليه تجدينه قديم الطراز.. أرضه مغطاة بسجادة مضلعة لمنع الانزلاق وحنفياته من النحاس الأصفر. المغطس لجهة الشمال وهو مصمم على شكل صدفة مروحية الشكل.. النافذة في مواجهتك تماماً والمرآة التي تتصدره مصقولة ذات أطراف زرقاء صُنعت على الطراز الفيكتوري، ولكن أحد أطرافها الزرقاء متصدّع».

أطلقت صرخة صغيرة ثم هرعت تفتح باب الحمام فوجدته كما وصفته الكلمات التي طرأت على ذاكرتها ورددتها. فكرسي الحمام إلى اليمين، والمغطس إلى الشمال، والنافذة في مواجهتها تماماً، بل لاحظت من مكانها قرب الباب التصدّع في أحد جوانب المرآة.

جلست هناك وقد امتقع وجهها. كل ما قالته كان حقيقياً... عرفت ذلك حالما دخلت إلى الغرفة.

سبق أن كانت هنا ليس مرة فقط بل أكثر بكثير، فمرة واحدة غير كافية لتعرف كل تفاصيل هذه الغرفة الحميمة بالنسبة لها، الغرفة التي تعرف كل ما فيها وهي معصوبة العينين. رفعت عينيها فرأت في المرآة تلك الأفكار الشاحبة. ولأول مرة أحست بعدم الراحة وبشعور من الشك.

سبق أن كانت هنا.. هل يعرف اليوت ريتشاردسون ذلك؟ هل تعرف مدبّرة المنزل ذلك أيضاً؟ فإن كانا يعلمان ذلك فلماذا يكذبان عليها؟

* * *

٥ ـ بينهما رجل ميت

حاولت اختيار ثيابها بدقة تلك الليلة.. فكرت أن الاهتمام بمظهرها قد يساعدها نوعاً ما في وجه شكوكها. كان الثوب الذي ارتدته أرجوانياً داكناً. وكانت تنورتها مفصّلة على قياس جسمها فأبرزت رقّة خصرها، أما سترتها فقد فُصّلت على الطراز الفيكتوري مع قبة عالية تظهر عنقها النحيلة. نظرت ايزوبيل إلى نفسها. بدت جميلة، وجهها يتوهّج كاللؤلؤة. كانت سترتها متناسقة مع جسمها كأنها صُممت خصيصاً لها. ارتدت تحت سترتها قميصاً حريرياً تزينها عند عنقها تخاريم جميلة.

بدا مظهرها، في الوقت نفسه، بسيطاً ومثيراً حتى فكرت في استبداله ولكنها قررت ألا تكون غبية فهي على شفير الهاوية، والشكوك والتخيلات تحرقها. منذ التقائها باليوت في شقته وبعدما عانقها بذاك الشغف راح يتصرف معها بكل تهذيب ولياقة. عرفت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة أنها منجذبة إليه، فنهرت نفسها.. يجب أن تضع حداً لهذه الأفكار. الآن هو يتصرف بتودد أو كياسة ولعل السبب شعوره بالذنب بسبب وصية زوج أمها، هذا كل شيء.

جمعت شعرها الكثيف بعصبية وعقصته بشكل شينيون فوق عنقها، فبدا ذلك أفضل وشعرت أنها قادرة على مواجهته.

أعدت لهما السيدة ديرنغ عشاء لذيذاً ولكنها رغم تلذذها بالطعام لم تشعر كلياً بالراحة.. فإليوت بدا متوتراً مع أنه بذل جهده لإخفاء ذلك وكان يراقبها بشكل دائم كأنه ينتظر منها ردة فعل معينة.

بدا تصرف مدبّرة المنزل أيضاً غريباً إذ كانت عصبية. . فيداها ارتجفتا وهي تضع الصحون على المائدة. وفي إحدى اللحظات لاحظت ايزوبيل أن مدبرة المنزل نظرت إلى اليوت نظرة ذات مغزى ولكن اليوت هز رأسه. وما كان يُسمع آنذاك غير وميض النار وأجيجها. تأملت ايزوبيل ثيابه. . كان يرتدي سترة مخملية سوداء أبرزت اسوداد شعره وقسوة ملامحه. . بدا غارقاً في أفكاره لمدة وجيزة، وكأنه يحاول أن يحل مشكلة ما في فكره. فجأة وكأنه وصل أخيراً إلى قرار، وضع فنجانه جانباً وأمسك يدها اليسرى ثم رفعها ووضعها بين راحتيه وراح يربت عليها برقة.

حاولت ايزوبيل المحافظة على هدوئها ولكنها تذكرت كيف عانقها بشغف فاحمرت وجنتاها وانعقد لسانها ولم يعد بمقدورها التكلم. كانت خائفة من مشاعرها وخائفة في الوقت نفسه أن يلاحظ ذلك. أخيراً تكلم بهدوء كأنه حضّر هذه الكلمات في فكره.

قال لها: «إنني أرغب في مساعدتك لذا عليك إخباري بكل ما تعرفينه. . . هل تدركين ذلك ايزوبيل؟ إذا أخفيت عني بعض الحقائق وبعض الأمور مهما كانت في نظرك تافهة، فأنت بذلك تزيدين الأمور سوءاً».

ـ أجل أعلم ذلك بكل تأكيد.

أبعدت ايزوبيل أنظارها بأسى. تعلم أنه محقّ وأن عليها إخطاره بكل ما تعلم، ولكنها لم تستطع تقبل هذه الفكرة.

ـ أعتقد أن هناك أمراً لا تريدين إخباري به؟ ألا تثقين بي؟

نظرت إليه عندئذ وعندما شاهدت تعابير عينيه وصدق اهتمامه بها، انعصر فؤادها.

ـ لا أدري.

كان فكرها مشوّشاً وضائعاً. . . أرادت أن تقول شيئاً ثم أردفت: «أشك الآن أن كل ذلك قد حدث فعلاً كما أخبروني. بصراحة لم يحدث ذلك كما أخبروني به. . بل هناك ما هو أكثر من ذلك».

سحبت نفساً طويلاً لتحافظ على رباطة جأشها ثم أردفت: أخبروني دائماً أن كل الذي حصل كان سلسلة من الحظ والقدر، أنني قد ذهبت إلى الحفلة الراقصة. . . وأن الرجل الذي كان يقود السيارة. . .

ـ بوليوس.

ـ أجل بوليوس الذي قيل لي إنني لم ألتق به إلا مرة أو مرتين، ولكنني الآن لا أعتقد أنهم أخبروني كل الحقيقة.

أجابها بصوت هادىء: «لا تعتقدين؟».

اختنق صوتها ثم تابعت: «كنا نعرف عائلته عندما كنت صغيرة. كانت أمه نصف مقعدة، ووالده. . نعم والده. . أتذكر والده. . كانوا يأتون عادة إلى منزلنا، الأبوان وابناهما. . كان هناك رابط صداقة بين العائلتين. وبعد ذلك. . حسناً، أعتقد أن والده ووالدتي وقعا بغرام بعضهما بعضاً ولكن لا أعتقد أنه كان بينهما علاقة ولكنني أعلم جيداً أنه كان يحبها وهي كانت تحبه أيضاً. . فما زلت أنا وبوبي نتذكر نظراتهما الولهى. . ثم فجأة توقفوا عن المجيء لزيارتنا. ربما لاحظ زوج أمي ذلك أو زوجته فقررا عندئذ وضع حدّ لكلّ ذلك، لا أدري بالضبط. كان هناك علاقة بين العائلتين كما ترى. بوليوس لم يكن غريباً كما ذكروا».

أجابها بصوت بارد: «بدأت أدرك ذلك».

انحنت ايزوبيل نحوه وأخذ تستعيد ذكرياتها: كان زوج والدتي يمنعنا من ذكر اسمهم في المنزل وظل على ذلك حتى بعد الحادث. . فلم يردد أحد أمامي اسم بوليوس أو اسم عائلته. وكلما كنت أسألهم عما حدث معي، كانوا يقولون لي لا تحاولي أبداً استعادة ذكرى الماضي، فبوليوس مات لذا لا داعي للاستفسار. لكن بوبي أخبرتني مؤخراً أنني أحببت بوليوس قبل الحادث وقالت أيضاً إننا التقينا به وبأخيه ادموند في مكان ما، وإنني وقعت في غرامه. ولكنها قالت لي إن ذلك كان نزوة فتاة مراهقة عابرة وإن بوليوس لم يلاحظ حبي له ولم يهتم لوجودي. . وأظنها على حق لأنها كانت موجودة هناك برفقتنا ولكن بعدما أخبرتني بذلك تساءلت قليلاً فيجوز أن تكون

مخطئة.

كان طوال الوقت يصغي إلى حديثها بانتباه وهو يمسك يدها.

قال لها بهدوء: «ألاحظ ذلك. لكن لماذا فكرت في أنها مخطئة؟».

ـ لأنني كنت في سيارته. إذن فعدم اهتمامه لوجودي يبدو شيئاً غريباً ولكن ليس هذا فحسب.. بل أنا أتذكره.

سألها وهو متجهم الوجه: «هل تذكرين بوليوس؟».

ـ أجل أتذكره، أتذكره دائماً ولكن لا أتذكر التفاصيل أو أي شيء عن الحادث، لا أتذكر حتى كيف يبدو ولكنني أتذكر عينيه. كانت عيناه رماديتين وكنت أراهما في أحلامي ليلة بعد ليلة وأذكر كذلك تعابير عينيه.. كان ينظر إلي كأنه يكرهني، هذا كل ما أتذكره عنه.. ثمة شعور قوي داخلي تجاهه، وبسبب ما أشعر به وبسبب ما قالته بوبي أشعر أن شيئاً حدث بين بوليوس وبيني.

ترددت وأصبح صوتها خافتاً: «إنه يسكنني.. يسكن في أعماق كياني.. إنه لشعور غامض وأكاد لا أصدقه، ولكن هذا ما أشعر به».

ـ أما زال هذا الشعور يلازمك حتى الآن؟

فاجأها السؤال فأجابته: «لماذا تسأل؟».

أجابها بحركة عصبية: «حسناً، يبدو ذلك رومنسياً. ألا تعتقدين ذلك؟ وربما مضحكاً.. المرأة الفتية الجميلة يسكنها شبح رجل ميت أو حبيب ميت، هل هذا ما تفكرين به؟».

امتقع لون وجهها بالاحمرار: لا، لا، لم أفكر قط هكذا إلا...

توقفت غير قادرة على إخباره بحقيقة ما تشعر به ثم تابعت بصوت حزين: «أنت لا تصدقني».

أجابها بصوت هادىء: ليس الموضوع أنني لا أصدقك، فما تقولينه شيء مذهل لا يصدق ولعل معظم ما تقولين هو من اختراع مخيلتك، فأنت تتذكرين هذا ولا تتذكرين ذاك.

نظرت ايزوبيل إليه فرأته حانقاً غاضباً.

قالت له: «طلبت مني أن أخبرك الحقيقة وما أشعر به. وها أنا أدرك أن لا فائدة من ذلك. لأنك لا تصدقني، لا أحد يصدقني».

قاطعها بحدة: «لا أصدقك كلياً، أعتقد..» ثم أصبح صوته رقيقاً: «أعتقد أن ذلك ممكن... ربما أضعت شخصيتك، إذ يظهر بوضوح أن عقلك يلغي أحياناً بعض الأحداث، وهناك سبب لذلك. أعتقد أن قصة بوليوس هذه وعلاقتك الغامضة به هي بالحقيقة نوع من الحجاب أو هي بالأحرى أشياء يبتكرها عقلك ليخفي خلفها ذكريات أخرى، ذكريات لا تريدين أن تتذكريها.

نظر إليها فجأة وتابع: «ماذا عن علاقاتك بالرجال الآخرين؟ أنت امرأة رائعة الجمال. كنت في التاسعة عشرة من عمرك عندما تعرضت لذلك الحادث. هل تريدين إقناعي أنك لم تعاشري رجلاً منذ ذلك الحين؟ أعتقد أنه يصعب تصديق ذلك بل العكس هو المعقول. لعلك ذهبت إلى تلك الحفلة معه، ثم تشاجرتما فتركته غاضبة وذهبت برفقة شاب آخر كان ثملاً.. هذا مشهد معقول جداً. أليس كذلك؟ بعد كل شيء ليس لدى بوبي أي سبب لتكذب عليك. هل كان لديها سبب؟ إذا قالت إن بوليوس لم يكن يشعر بوجودك فلماذا لا تقبلين بذلك؟».

ـ لأن ذلك لا يبدو صحيحاً، وكل ذرة في كياني تخبرني أن ذلك غير صحيح. أتعتقد أنني مخطئة؟

ـ أعتقد أنه يجب عليك أن تطرحي على نفسك سؤالاً أو سؤالين؟ مثلاً أخبريني منذ حصول الحادث أي منذ خمس سنوات، ألم تُقيمي علاقة مع رجل آخر؟

فأجابته بسرعة: لا، لم أقم علاقة مع أي رجل.

ظهرت على وجهه علامة الإنتصار.

ـ هذا ما أنتِ عليه. كنتِ تعيشين حياة غير طبيعية، حياة منزوية. تعيشين سجينة في جو قاتم مع رجل عجوز على وشك الموت، كنت سجينة..

- لا، هذا ليس صحيحاً.

- لأنه لم يكن لديكِ علاقة طبيعية مع الأشخاص الذين هم من سنك، توجه فكرك إلى الماضي وراح يبتكر أشكالاً وأحداثاً لم تحصل قط، فابتكرت هذه القصة الغريبة عن رجل ميت وعن علاقتك به.. هاجس مع رجل ميت.

نظرت إليه ايزوبيل بوجه شاحب فوجدت الغضب في عينيه. تعجبت من هذا التبدل في تصرفه، فبدل اللطف والكياسة حلت الخشونة والحدة. شعرت بالألم والحزن وقالت له:

- توقف أرجوك! هذا ليس صحيحاً، كل ما تكلمت عنه غير صحيح فأنا لم ألغِ أي ارتباط أو علاقة مع الرجال بملء إرادتي.. كنت مريضة، وكان زوجَ أمي يحتاجني بقربه لذلك نادراً ما قابلت رجلاً، و...

قاطعها بسرعة: «والآن؟».

نظرت إليه بذهول!

- الآن!!

- أجل الآن، هل تتعامين كلياً عن وجودي الذي يبدو هو المشكلة.

توقف وهو يبتسم بألم: «أليس لديك فكرة عن شعوري، وعن سبب طرح هذه الأسئلة عليك، وعن سبب اصطحابك إلى هنا؟».

- إنك تريد مساعدتي.

- يا إلهي. أجل أردت مساعدتك. هل تعتقدين أن ذلك كان السبب الوحيد؟

نظر إلى عينيها ودنا منها خطوة وتابع برقة: «أليس لديك فكرة عن قوة تأثيرك في الرجال؟ أقفلت على نفسك وانزويتِ مع زوج أمك لمدة طويلة فنسيت ماذا يشعر الرجل عندما يكون مع امرأة مثلك ايزوبيل؟».

أمسك يدها ببطء فشعرت ايزوبيل بالنار تحرق وجنتيها.

أحاط عنقها بأنامله بلطف ورفع وجهها نحوه: لماذا ربطت شعرك هكذا هذه الليلة؟ هل تعتقدين أنك بهذا تبدين أكبر سناً وأكثر قسوة وأقل

جاذبية؟

ابتسم ثم أضاف: «أنت مخطئة! على كل أفضله متدلياً».

وبسرعة، وقبل أن تعترض ايزوبيل سحب المشط الصغير الذي يمسك شعرها فانسكب شعرها الكثيف كشلال على كتفيها. لم تتحرك ايزوبيل، بدت مأخوذة وبكل نعومة سحبها نحوه والغريب أنه ظل لحظات عديدة ينظر إلى وجهها ويفتش عن عينيها، ثم بهدوء وليونة ومن غير تعمد راح يعانقها وعندما تجاوب جسمها معه عرفت عندئذ كم تمنت ورغبت في أن يعانقها وكم فكرت في عناقه في الأيام الأخيرة تركت جسمها يسترخي من دون أي مقاومة وعندما شعر بتجاوبها ضمها أكثر فأكثر..

همس قرب أذنها:

- يجب أن تعلمي ما هو شعوري وكم أريدك.

توقف هنيهة ثم أردف:

- أريدك أكثر من أي شيء ولا أقدر أن أفكر في أي شيء. أريد أن أنسى كل شيء حتى الماضي. عندما أكون معكِ أشعر أن الماضي لم يكن قط. هل تدركين ذلك؟

- لا.

- أنا قادر على إخفاء مشاعري أكثر مما تصورت.. في مطلق الأحوال وصلنا إلى النقطة التالية: عندما لا يقدر أي رجل على إخفاء مشاعره. و...

اقترب منها وهو يتكلم. رفعت ايزوبيل يديها ببطء وراحت تلمس وجهه بكل رقة. أما هو فكان ينظر إليها بشغف وشعرت أنه يبذل جهده ليتمالك أعصابه.

- حصل لي شيء ما عندما قابلتكِ، شعرت كأنني أعرفك وكأنك تعرفينني، وأحسست أن المجاملات العادية بيننا عديمة القيمة ولا لزوم لها.

أحست أن الطريقة التي كان يتكلم بها والإنفعال الظاهر في عينيه يخيفانها... نظرت إليه مسحورة وتمنت أن يطرد بنظراته الدكناء كل شيء

آخر من ذهنها، كانت مأخوذة بالكلمات التي كان يتفوه بها.

ـ في تلك الليلة عندما جئتِ إلى شقتي. تغيرت الأمور عن مجراها، لأنني لم أتمكن من تمالك أعصابي. عندئذ وجدت نفسي أخبركِ عن أمور لم أناقشها مع أي شخص. لم أستطع النوم في تلك الليلة، كنت غاضباً من نفسي وحانقاً. عرفت أنكِ كنتِ مريضة. ما كان يجدر بي أن أخيفك بعناقي.. أقسمت بشرفي ألا ألمسك ثانية ما لم أتأكد أنك تريدينني فعلاً وحافظت على هذا القرار حتى الآن.

أحكم يده حول خصرها وابتسم بهدوء:

ـ والآن عندما ألمسك أجدني لا أدري كيف أتمالك أعصابي. ولكن..

توقف عن الكلام، «أخبريني، لا، لا تخبريني، أنا أعلم، أعلم أنني على حق».

ـ على حق؟

رددت الكلمة التي شوشت فكرها، ولم يعد بمقدورها أن تفكر.

كان يعانقها بشغف غريب. أحست بأنفاسها تكاد تختنق، ثم أمسك يدها وقال لها:

ـ أتشعرين كم أريدك..

رفع يدها فقبلها برقة.

تمتم وشفتاه قرب أذنها: مضى على ذلك وقت طويل.. طويل جداً.

تراجع فجأة إلى الوراء وعيناه تلمعان في العتمة.. ثم عاد يعانقها بذاك التوق الغريب: «أخبريني ايزوبيل.. هل تريدينني؟».

رفعت نظرها إليه محاولة تركيز عينيها على وجهه. وأحست للحظة بالضوء في عينيه يجمّد عينيها فشعرت بعد ذلك أنهما مغمضتان. لم يعد باستطاعتها الكلام، جلّ ما كانت تريده هو أن تدع يدها تسبح على وجهه:

اوه أريدكَ، أريدكَ بقوة.

وراحت تعانقه بشغف وعنف.

ـ أريدكَ يوليوس...

قالت ذلك وهو يغمرها بذراعيه.. تفوّهت بتلك الكلمة من دون أن تدري ماذا قالت بالضبط. لم تدرك ذلك إلا بعد لحظات، عندما شعرت فجأة بتوتره وأحست بالألم وهو يضغط على كتفيها بيديه.

نظرت إليه وقد امتقع لون وجهها وزاغت عيناها، كان ينظر إليها ببرودة وغضب وشكّ. شدّ من دون أن يدري بيديه على كتفيها، فانغرزت أظافره في بشرتها حتى صرخت من الألم وظل يمسكها هكذا وهو صامت لا يتكلم، فبدا لها ذلك الصمت دهراً. بدا كأنه ينتظر منها شرحاً واعتذاراً، شيئاً ما يمكنه اختراق ذلك الحاجز الذي تعالى فجأة بينهما. أخذت ايزوبيل تضغط بيدها المرتجفة على جبينها.

ـ أنا آسفة، أنا آسفة! لم أدرِ ماذا قلت، لا أصدق أني قلت ذلك، اليوت، أرجوك صدقني!

رفعت عينيها بيأس نحوه: «لم أكن أفكر فيه كلياً بل كنت أفكر فيك وفينا.. أرجوك اليوت».

ـ انسي ذلك.

ارتدّ عنها وشفتاه ترتجفان: أنا مسرور لأنك تتذكرين اسمي الآن. على كل...

ـ لم يكن ذلك ما أريد... لا أدري لماذا قلت ذلك وكيف حصل؟ لا أستطيع شرح ذلك.

ـ تأخرت قليلاً في الشرح. على كل حال سأتركك الآن.

ارتد نحو الباب فهرعت ايزوبيل وراءه وأمسكت يده:

ـ أرجوك اليوت، انتظر، لا تذهب.

ـ لا أعتقد ذلك.

سحب يده ببرودة وقال لها وهو متردد: «فلنقل إن تلك المشاعر التي شعرتُ بها قضى عليها بسهولة شخص ميت.. ولا أنوي الآن إعادتها إلى الوجود. هذا غريب، أليس كذلك؟».

ابتسم ببرودة: شعرت بالغيرة سابقاً ولكن لم أشعر قط بالغيرة من رجل

www.elromancia.com

ميت. عمت مساءً ايزوبيل أتمنى لك أحلاماً سعيدة..

قال ذلك وأقفل الباب وذهب.

* * *

في الصباح التالي أخبرته.

كانا في السيارة تحيط بهما الثلوج. فخلال الفطور بدا بارداً وهادئاً وصامتاً لذا لم يعد باستطاعتها التحمل أكثر فقالت له وهي في السيارة: اليوت، توقف يجب أن أتحدث إليك.

ـ كما تريدين.

توجه بالسيارة إلى جانب الطريق وأطفأ المحرك وترك يديه على المقود بلا مبالاة. نظرت ايزوبيل إلى القفازين في يديه لأنها إن نظرت في عينيه لن تستطيع التكلم، ثم قالت له بصوت مخنوق: هناك شيء لم أخبرك به. أدركت الآن أن علي أن أطلعك عليه، عندما أوصلتني معك في ذلك النهار من لندن، كنت هناك لمقابلة طبيب، طبيب متخصص.

راحت تخبره ماذا حصل معها، وماذا قال لها الطبيب. كان يصغي إليها بصمت وهدوء فلم يحاول مقاطعتها أو مساعدتها حتى عندما كان يضعف صوتها وتحس بالارتباك.

ثم استرجعت ايزوبيل أمامه كيف وصلت إلى منزله وتعرفت إلى غرفتها، وأحست بقوة أنها كانت هناك سابقاً فشعرت بالحزن والأسى ثم تابعت حديثها عن الطبيب:

ـ حذرني وقال لي إنه يعتقد أن من الممكن أن أستعيد ذاكرتي. وربما بالإمكان إحداث ثقب فيها واختراقها خصوصاً إذا أقمت بعد كل هذه السنين صداقة مع رجل، وهكذا اعتقدت ليلة أمس...

راحت تبكي.

لم ينظر إليها.. لم يرَ دموعها ولكنه سمعها تبكي، بعد صمت طويل التفت اليوت نحوها وقال لها:

ـ لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟ أخبرتكِ ليلة أمس أن عليك إخباري

بكل شيء لأستطيع مساعدتك.

ـ لا أدري، كنت مرتبكة وخجولة...

ـ أتخجلين أن يكون لك صديق؟

ـ بالتأكيد لا. لكن أن تجهل ذلك الرجل، وكيف حصل ذلك لا يمكنك التصور كم أن ذلك مرعب، قال لي الطبيب مرة ربما تعرضت لاغتصاب. لذلك أخفوا الأمر عني طوال هذه المدة وأذكر أنه قال إن من المحتمل أن يكون سبب فقداني الذاكرة شيء آخر غير الحادثة.

ارتدّ اليوت نحوها وقال لها بصوت بارد جداً:

ـ هل تعتقدين أنك اغتصبت وأن يوليوس فعل ذلك.

ـ لا، لا أعتقد ذلك، فعندما أفكر فيه لا أجمع بينه وبين التهديد أبداً. وقد قال لي الطبيب في لندن إن هذا الاحتمال غير صائب فحسب قوله لو تعرضت لاغتصاب لشعرت بعوارض أخرى، ولرحت أخاف من الرجال ولرفضت أن يلمسني أحد، أنت تدرك أنه ليس لدي هذا الشعور.

توقفت عن الكلام وراحت تنظر إليه، كان ينظر إلى البعيد ويداه على المقود ترتجفان، أرادت للحظة أن تقترب منه وتلمسه، لكنها لم تتجرأ فأحنت رأسها.

أخيراً قال لها بهدوء: «كان لديكِ أكثر من حبيب واحد، هل خطرت ببالك هذه الفكرة؟ قلت الآن إنك لا تربطين بين يوليوس وبين التهديد. ليلة أمس، قلتِ إنك تتذكرين تعابير عينيه كأنه يبغضك، لماذا؟ ربما كان غيوراً من رجل آخر فطريقتك وتركيزك على ذلك الرجل بمفرده لا يساعد في إيجاد الحل».

قاطعته ايزوبيل: «أنت لا تصدقني، أنت لا تصدقني».

وحجبت وجهها بيديها: آه، لا أستطيع تحمل ذلك.

ـ حسناً، عليك القبول بذلك، هذا صعب. قصتك تتبدل طوال الوقت. كيف أعلم أنك أخبرتني كل شيء؟ مثلاً، منزلي، عندما وصلنا إلى هناك كنت مقتنعة كلياً أنك لا تعرفينه وأنك لم تزوريه قط. واليوم تخبرينني

أنك تعرفت إلى غرفتك حالما دخلت إليها. لماذا لم تخبريني بذلك ليلة أمس؟ ليس هناك ما تخجلين منه!

ـ لا أدري لماذا لم أخبرك، ربما لأنني اعتدت على الصمت لمدة طويلة. وربما لأن الناس يخبرونني دائماً نصف الحقيقة. ربما لم أعد أثق بنفسي وبفكري وبكل شيء.

ثم ارتدت إليه وأمسكت يده بلطف وتابعت: «ولكنني أقسم لك أنني أخبرتك كل ما عرفته ولم يعد هناك أي سر بيننا».

ـ أتمنى تصديق ذلك وأرجو أن تكوني على حق.

ظلت ممسكة بذراعه وهي تنظر إليه فوجدته بارداً جداً ونظرات الازدراء في عينيه، فأدركت أنه لا يزال غير مقتنع بكلامها.. أحست بالانقباض فسحبت يدها.

قالت: ربما علي الآن العودة إلى المنزل. كل ما قلته صحيح ولا أقدر أن ألومك. لماذا تريد متابعة ذلك؟ أنا أدرك... أدرك أن شعورك نحوي قد تغير.. أفهم ذلك، لا أستطيع الخروج من القطار أو العودة إلى الوراء مهما حدث...

استدار نحوها فجأة وطلب منها النظر إليه وقال لها: تعتقدين أنه بسبب ما أخبرتني قد تغير موقفي منكِ؟ ألأن ماضيك مأساوي سأتخلى عنكِ، أهذا ما تعتقدينه؟

لم تجبه ايزوبيل لكن وجنتيها شحبتا فنظر إليها اليوت بلطف ووضع إبهامه على شفتيها وقال لها: يا غبيتي العذبة، أعتقد أنك لا تعرفينني جيداً وأظن أنك لم تستمعي أمس إلى ما قلته لك. وإذا ذكرت بعد الآن أنك تريدين الرحيل وأنت في هذه الحالة المأساوية فسأغضب منك كثيراً، إذن لا ترددي ذلك أبداً.

راح يعانقها فاسترخت وطال العناق.. شدها إليه بقوة وازداد عناقه قوة.. بعد قليل خفف عناقه فرمت رأسها على كتفيه بعياء.

قال: أعتقد أن علينا تنفيذ المخطط الذي وضعته لهذا الصباح. هل

توافقين؟

ابتسمت ايزوبيل وأجابته: أنا موافقة، حتى ولو لم أكن موافقة فأنا متأكدة أنك على حق.

قال لها بصوت أجش: سنتابع الخطة كما وضعناها... سنذهب إلى منزلكم القديم وبعد ذلك سنسلك الطريق لنصل إلى المكان الذي حصل فيه الحادث. هل أنتِ مستعدة؟ لا أريد إزعاجك.

اطمأنت ايزوبيل لعذوبة صوته ولطفه، وشعرت بقلبها يرقص من الفرح فأومأت برأسها علامة الموافقة، فانطلق بالسيارة.

راحت تنظر إلى الطبيعة... كانت الثلوج تُعمي النظر، فشعرت بالضوء يفتح قلبها ويُنير الدنيا أمامها ويبعث الحياة في كل حواسها وينقلها من الظلمة والعمى إلى الحياة والنور. قالت لنفسها: أنا أحبه، سأخبره ذلك، لكن ليس الآن بل في القريب العاجل.

* * *

٦ ـ البحث عن حلم

ـ لا شيء؟ هل أنت أكيدة؟

اختفت الشمس خلف الغيوم الدكناء. . . ارتجفت ايزوبيل وشعرت بالبرد الشديد.

ـ تعرفت إلى المنزل. أجل. . .

ثم ترددت فأمسك اليوت يدها. . راحت تنظر إلى الطريق الممتد أمامهما: هناك خطٌ طويل من الأشجار القديمة التي شوهتها السنون والعواصف والرياح، فانحنت على الطريق وتشابكت أغصانها. كانت الطريق ضيقة تعصف فيها الرياح وهي محفرة على الجانبين، في ضوء الشفق الباهت تمكنت ايزوبيل بصعوبة من أن تتعرف إلى العلامة المعلقة على الطريق، العلامة التي تدل على مفترق الطرقات.

ـ يجب أن تكون هذه هي الطريق. أخبروني أين حصل الحادث وهذا هو المكان الصحيح. .

ترددت: «الأشجار، الحفر، تقاطع الطرقات. هذا هو المكان الذي أخبروني به. . ».

ـ وبعد. . .

ـ وبعد. . لا شيء. لا أذكر شيئاً. . اليوت، أنا آسفة، لم تمشِ الأمور كما يجب.

أجابها بصوت حازم وهو يهز كتفيه: لا بأس، لا بأس.

استدار ليقودها بيده إلى السيارة.

ـ ربما كنت بسيطة جداً وكثيرة التفاؤل. . ليس هناك سبب لتعود إلى ذاكرتي.

أجابها بتحفظ: «نحن نحاول، وهذا هو المهم والآن الشمس على وشك المغيب والطقس بارد جداً، تعالي، من الأفضل أن نعود إلى المنزل قبل هبوط الظلام».

أدار السيارة ورجع إلى المنزل عبر طريق أخرى غير التي سلكها في الصباح. . كانت مصابيح السيارة تضيء الثلوج الكثيفة التي بدأت تتجلد. راح اليوت يقود بهدوء وهو يفكر، أما ايزوبيل فكانت تحاول إجبار فكرها على اختراق الماضي الغامض. شعرت الآن بالتعب والإحباط بينما كانت صباحاً تشعر بالسعادة والتفاؤل إلى جانب اليوت. كانت متأكدة أن شيئاً سيحدث، شيئاً سيعود إليها عندما ترى المنزل الذي أمضت فيه طفولتها والمكان الذي وقعت فيه الحادثة. .

استدارت نحو اليوت وقالت له بحزن: أعتقد أنني قد بذلت كل ما في وسعي. كنت مجنونة عندما ظننت أن القضية بسيطة وأنه يكفي زيارة مكان الحادث لتعود الأمور إلى مجراها.

نظر إليها اليوت: «هناك أكثر من ذلك».

ـ حسناً بعد كل الذي حدث، من المحتمل جداً أن أجد بعض الأشخاص الذين لا يزالون يعيشون هنا والذين ما يزالون يتذكرون الحادث. إذا تكلمت إليهم، ربما يتذكر أحدهم شيئاً لم يخبرني به. . . هناك مثلاً ادموند، شقيق بوليوس. لا بد أنه على قيد الحياة، ليت بإمكاني إيجاده والتحدث إليه. . ألا تعتقد أنها فكرة صائبة؟

هز كتفيه: «لا أظن ذلك. لماذا تتخيلين أنه سيساعدك؟».

ـ حسناً كان موجوداً تلك الليلة، هذا ما قالته بوبي. يجب أن يتذكر شيئاً. قالت بوبي إن ادموند كان أفضل من أخيه، لطيفاً ومهذباً. . كانت تحبه، هذا ما قالته لي. .

قال ساخراً: آه! حسناً. . إذا كانت هذه هي شهادة بوبي بالطبع.

تابع بصوت ساخر: لا أعتقد أنه سيقدر أن يخبرك أكثر مما أخبرتكِ به بوبي. علاوة على ذلك، أخبرتك أنه لم يبقَ أحد من هذه العائلة هنا.

تفاجأت بلا مبالاته لكنه تابع: على كلٍّ حاولي ذلك... إذا كنت مصرة على فكرتك فأخبريني هل تتذكرين ادموند؟ كنت تعزّينه كما كانت تُعزّه بوبي؟

تفاجأت ايزوبيل لحدة صوته وقالت له: لا، لا أتذكر أي شيء عنه، أكنت أعزه أم لا؟

أجابها بصوت بارد: مسكين ادموند، لا يشعر به أحد، مرفوض، ولا وجود له.

قاد سيارته عبر بوابة المنزل. ظلت ايزوبيل صامتة. بما أن الإقتراح أزعجه فلن تتكلم عنه مع أن ردّة فعله لم تكن منطقية في مطلق الأحوال. هو الذي اقترح عليها أن تذهب وتفتش عن ماضيها لكنها لا تريد أن يُملي عليها إرادته فهي تقرر ما تريد. عندما حاولت الترجل من السيارة قال لها: أرجو أن تعذريني، ثمة عمل علي إنجازه. لن أغيب طويلاً. يمكنك الدخول إلى المنزل.

ـ حسناً، لا بأس.

بدا لها ذلك غريباً لأنه لم يكن هذا العمل وارداً في برنامج اليوم.

ـ هل تسمح لي أن أتصل ببوبي هاتفياً؟ يجب أن أتكلم إليها.

ـ طبعاً، باستطاعتك ذلك.

تغيرت تعابير وجهه وعاد إلى طبيعته فأحست ايزوبيل ببعض الراحة.

ـ تكلمي بكل حرية. سأكون هنا بعد ساعة، اطلبي إلى السيدة ديرنغ أن تحضر لك فنجاناً من الشاي، فأنتِ تشعرين بالبرد.

حاولت ايزوبيل الاتصال ببوبي من دون جدوى.. فجرّبت الاتصال بمنزل زوج أمها وهناك أجابتها السيدة سبنسر بأنها لم تتصل بها حتى الآن.

أقفلت ايزوبيل الخط وطلبت رقم الوكالة التي تعمل فيها بوبي في نيويورك. إنها تكره ذلك لأن الوكالة لا تحبّذ أي اتصال من الأهل للسؤال

عن العارضات. هذه المرة أيضاً حصل ما توقعته فقد كان جواب موظفة الاستعلامات حاداً وقاطعاً.

ـ أجل، آنسة سانت ايوين سافرت إلى بارباروس ولكنهم لم يبدأوا بالتصوير وليس هناك أي رقم للاتصال بها. سنترك لها رسالتك إذا اتصلت.

أقفلت ايزوبيل الخط بعصبية. تباً لبوبي!

شعرت بالقلق فجلست في غرفة الاستقبال لمدة وجيزة عاجزة عن الاسترخاء وراحت تراجع في رأسها أحداث النهار. بعد قليل جاءت السيدة ديرنغ حاملة صينية من الشاي ومربّى الفاكهة من صنع المنزل فجلست إلى جانبها أمام المدفأة.

ـ أخيراً، ها أنت هنا عزيزتي! ستستعيدين دفئك، تناولي هذا الشاي الساخن.

ونظرت إلى ايزوبيل وسألتها: هل أمضيتِ نهاراً جيداً برفقة اليوت في السيارة لأن الطقس بارد جداً في الخارج؟

ـ أجل، أجل. كان الطقس بارداً.

ترددت، لكن عندما رأت أن السيدة ديرنغ لن تتحرك من مكانها استجمعت شجاعتها وتابعت الكلام: إنه منزل جميل.. أخبرني ايليوت أنك تعملين هنا منذ وقت طويل سيدة ديرنغ.

ابتسمت السيدة ديرنغ وأجابتها:

ـ لماذا تطرحين علي هذا السؤال؟ أعمل في هذا المنزل منذ أربعين سنة.. منذ كنت فتاة صغيرة.

ـ آه! لم أعلم أنك هنا منذ ذاك الوقت الطويل. في هذه الحالة ربما تتذكرين أهلي. كنا نعيش هنا في قرية «أستون ديفيروول»، ألم يذكر اليوت ذلك أمامك؟

ـ لا، لم يأتِ على ذكر ذلك أمامي.

راحت تحرك يدها على طرف ثوبها ثم قالت: حسناً علي العودة إلى

المطبخ لأحضّر طعام العشاء.

ـ ألا تتذكرينهم؟ عائلة سانت أيوين؟

هزت السيدة ديرنغ رأسها وقالت: حسناً، أنا آسفة.. أعيش هنا حياة هادئة منزوية. فعمّ السيد اليوت نادراً ما كان يأتي وأنا لم أكن أغادر المنزل إلا قليلاً..

ـ إذن ربما تعرفين أحد أصدقائي الذين كانوا يعيشون قريباً من هنا: عائلة «دي لاهاي»، كانت الأم معوقة ولها ولدان، يوليوس وادموند.

رأت ايزوبيل بريقاً سريعاً في عيني السيدة ديرنغ ونظرة صخرية: دي لاهاي، دي لاهاي. ربما سمعت بذلك... أهم من سكان المنطقة؟

ترددت ايزوبيل: لا أدري، أعتقد أنهم عاشوا هنا عدة سنين، فالولدان كانا يذهبان إلى المدرسة الداخلية.

ـ حسناً، ربما ذكر اسمهما أمامي مرة أو مرتين ولكنني لا أعرفهما شخصياً. والآن اعذريني آنسة لاتيمير.

خرجت من الغرفة بسرعة قبل أن تستوقفها ايزوبيل من جديد.

راقبتها ايزوبيل وهي خارجة، وشعرت بالغضب لأنها بدأت تشكّ بحركات هذه المرأة، فهي تكذب. لكن لماذا؟ لماذا؟ لماذا تكذب لسؤال بسيط كهذا؟ ما لم.. راحت تفتش في فكرها عن السبب. ما لم.. يُطلب إليها أن تكذب. وهناك شخص واحد قد يطلب منها ذلك: اليوت ريتشاردسون.

لكن عندما عاد اليوت إلى المنزل بعد نصف ساعة، نسيت كل تلك الأفكار. دخل إلى الغرفة وعلامات البهجة على ملامح وجهه، حياها بحرارة ولطف.. فتأثرت وتضاعف خفقان قلبها. راح يمشي في وسط الغرفة ولكنه توقّف فجأة ثم دنا منها ومد لها يديه وسحبها إلى قلبه. عندما نظرت ايزوبيل إلى عينيه، اختفت من فكرها كل الشكوك وشعرت بالخجل. إنها متسرعة وكثيرة الشكوك، من السخافة أن تشعر بهذه الأفكار.

جذبها إليه وهو يقول: حبيبتي.

عندما سمعت ايزوبيل هذه الكلمة منه لأول مرة احمرت وجنتيها

وارتعش كل جسمها.

عانقها برقة ثم ارتد قليلاً إلى الوراء ونظر إليها قائلاً: كنا مجانين وبُلهاء... كان هناك شيء أمامنا لكننا لم نره، والآن اسمعي! هل تتذكرين أنني قد طلبت منك أن تجلبي معك جواز سفرك؟

ـ أجل.

ـ حسناً، اذهبي واجلبيه بسرعة.

عندما عادت، كان اليوت يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. أخذ الجواز منها بسرعة وراح يتصفحه ورقة ورقة. كانت ايزوبيل تراقبه متعجبة وأخيراً أطلق صرخة الانتصار.

ـ عرفت ذلك ايزوبيل عرفت ذلك، انظري هناك.

أعطاها الجواز فنظرت ايزوبيل إلى إحدى صفحات التأشيرات بدهشة.

ـ يا بلهائي ألا ترين؟ انظري! إنها مختومة ألا ترين ذلك؟ تأشيرة دخول وخروج مؤرخة، وصلتِ إلى الجزائر في تاريخ الثاني والعشرين من شهر كانون الأول وخرجت بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر نفسه. عبرتِ الحدود إلى مراكش. انظري هذا هو ختم الخروج على الحدود في تاريخ الثالث والعشرين من شهر كانون الأول، يبدو أنك ذهبت إلى مدينة فاس في مراكش لأنك استقلبت الطائرة من هناك... انظري هنا الختم بتاريخ السادس من شهر كانون الثاني. حصل ذلك تماماً قبل الحادث بأسابيع قليلة. كنتِ في الجزائر ثم قطعتِ الحدود إلى مراكش، مكثتِ هناك حوالى أسبوع ثم عدتِ بالطائرة. ثم تعرضت للحادث بعد ذلك بوقت وجيز، في نفس الشهر. والآن هل أدركتِ ذلك؟

نظرت ايزوبيل إلى الصفحات والأختام والتأشيرات والتواريخ مذهولة وأخذت تجهش بالبكاء. غمرها اليوت بذراعيه وضمها إليه.

ـ حبيبتي، لا تحزني! ألا ترين أننا وصلنا أخيراً إلى شيء مهم؟ هذا يفسر الآن البطاقة التي أرسلتها آنذاك لزوج أمك، كل ذلك له علاقة مع الحادث. لكن لماذا كذبوا عليكِ؟ لماذا لم يذكروا أمامك أي شيء عن هذا؟ فكري

ايزوبيل حبيبتي. قبل حصول الحادث بفترة وجيزة كنتِ في الجزائر. من هناك، أرسلتِ لزوج أمك بطاقة تخبرينه فيها أنك بخير وسعيدة وتطلبين إليه ألا يفتش عنك ثم علمت أنه سيسافر ليفتش عنك فأردت إخفاء آثارك، فكان أن اجتزت الحدود إلى مراكش... مكثتِ هناك أسبوعاً ثم عدتِ فتعرضت فيما بعد لذاك الحادث... والآن فكري كيف يمكن لإنسان عاقل أن يحلل هذه المسألة ويشرحها؟

نظرت إليه ايزوبيل وقد جفّ حلقها.

- أنتَ تعني أنني سافرت إلى الجزائر برفقة رجل لأبقى معه، رجل لا يريد زوج أمي أن أبقى معه؟ ولهذا جرّب وحاول إيقافي ومنعي من ذلك، أهذا ما تفكر فيه؟

- نعم.

- نعم، هذا ما أفكر فيه. بالحقيقة أفكر في ما هو أبعد من ذلك. بعد كل الذي حصل معك، من هو بنظرك الرجل الذي يكرهه زوج أمك والذي منعكِ أنت وشقيقتك من رؤيته؟

أجابته ايزوبيل بحزن وألم: «لا يمكن أن أكون معه. هذا غير ممكن».

- أعتقد أنه ممكن، أعتقد أنك سافرت إلى الجزائر سراً مع رجل لا يحبه ولا يريده زوج أمك. رجل تتذكرينه حتى بعد الحادث، رجل تحبينه. أعتقد أنك سافرت إلى مراكش مع يوليوس.

- هذا ليس صحيحاً اليوت فلو سافرت معه لتذكرتُ ذلك أو على الأقل تذكرت شيئاً منه.

غمرها بذراعه: «حبيبتي لا، ليس من الضروري ذلك. ذهبتِ مع شخص تحبينه ثم عدت إلى المنزل فحدث شيء ما، مشاحنة أو صعوبات مع زوج أمك ثم حصل الحادث وبعد ذلك أخبروك أن الرجل مات».

تابع بحنان: «ألا ترين ذلك ايزوبيل؟ كان حبيبكِ ثم عرفتِ أنه مات، هذا هو سبب الصدمة... لهذا فقدتِ ذاكرتك».

نظرت ايزوبيل إلى وجهه، فرأت في عينيه الحب والحنان. لكن وجهه

بدا قاتماً وارتدَّ إلى الظلمة ثم حلّ محلّ وجهه وجه آخر أكثر شباباً والعينان اللتان تنظران إليها لم يعد لونهما قاتماً بل أصبح فولاذياً ورمادياً، ولم تكونا تنظران إليها بكره كما يحدث دائماً في أحلامها بل بحنان وحب.

ترنحت وأغمضت عينيها فأمسكها ايليوت وحملها بين ذراعيه.

- حبيبتي، سيكون النصر حليفنا، نحن نسير خلف الآثار الصحيحة... أشعر وأثق بذلك.

شعرت بالراحة وهي تسمع نبرة صوته الحنونة.

- هل أنتِ خائفة؟ هل تريدين مواصلة السعي؟

ابتسمت ايزوبيل: «أجل أريد ذلك».

- إذن دعينا نذهب ونحزم أمتعتنا.

- نحزم أمتعتنا؟

- بالطبع، سنستقلّ الطائرة غداً إلى مراكش.

* * *

- أنت مجنون، هل تعرف ذلك؟

جلست ايزوبيل في مقعد الطائرة وضحك اليوت الذي ضغط على يدها بلطف. ابتسمت له بسعادة.

- عندما التقيتُ بك لأول مرة، ظننت أنك... اوه لا أدري! بارد ومتحفظ وحذر. رجل مال ورجل مصارف. والآن لا أجد فيك أي شيء من ذلك، بل أجدك مندفعاً ومتهوراً ومسرفاً وقد تعودت على ذلك. في السهرة أمس كنت في ديفون واليوم أنا في الطائرة متوجهة إلى شمالي افريقيا، ثم أكتشف أن هذه طائرتك.

- نحن مسافران إلى هناك كما يفعل غيرنا ولكن بشكل أسرع.

- لكنني لم أعلم أن لديك طائرة خاصة.

ابتسم اليوت وأجابها: «هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني».

نظرت إليه ايزوبيل: بالحقيقة، لا أعرف عنك شيئاً أبداً.

- أي نوع من المعلومات تفكرين فيها؟

- حسناً لا أعرف أهلك وعائلتك.

- ليس هناك الكثير لأخبركِ به.. ثمة حادثتان حصلتا في حياتي وأثرتا في مجراها. الحادثة الأولى أخبرتكِ بها.

توقف فنظرت إليه بفضول وسألته: «والثانية؟».

- الثانية تحصل معي الآن.

شعرت ايزوبيل بالخجل ولكنها نظرت إلى عينيه فإذا بهما قاتمتان.. للحظة فقط رأت فيهما تلك المرارة القديمة ثم عادت واختفت.

- فكرت لمدة أن الذي حصل لي في الماضي لم يخفني ولكنه شلّ حياتي نوعاً ما.

- والآن؟

- والآن لست واثقاً ولكن فلنقل إنني أكره الخسارة. يبدو أن بيننا شيئاً مشتركاً.

- أنت تشعرني بالسعادة.

ابتسم: أنا مسرور بذلك. السعادة هي حالة نسيتُ أنها موجودة.

- ربما عليك أن تتصرف كما نصحتني ذات يوم. فتش عن ماضيك.

هز كتفيه وأجابها:

- في مطلق الأحوال، أعتقد أنه من الأفضل لي أن أترك الماضي حيث هو في الماضي. أما الآن، فأنا أفتش عن المستقبل.

شعرت ايزوبيل مرة أخرى بسرعة نبضها وبخفقان قلبها.. راح ينظر من النافذة وهو يتكلم بصوت هادىء.

- انظري، نحن نعبر الشاطىء.

أشار إليها عبر النافذة.

- سوف نحط بعد دقائق قليلة. حجزت لنا في فندق بالاس الذي يقع في ضواحي المدينة العربية القديمة. إنه ممتاز، حجزت لنا غرفتين متصلتين.

كان عليه أن يقول جناحاً خاصاً.. هذا ما فكرت فيه.. عندما وصلا إلى الفندق راحت تنظر من حولها بإثارة. كانت الغرف مفروشة على الطراز

المراكشي والأرض مرصّعة بالقرميد الموشّى بالرسوم اليدوية، والمقاعد مغطاة بالشراشف الحريرية، نظرت من النافذة المقوسة الشكل إلى فناء حديقة جميلة، ومن خلال قوس آخر تمتد غرفة النوم. نزعت ايزوبيل حذاءها ومشت عارية القدمين على السجادة المصنوعة من الفراء والحرير. هناك في صدر الغرفة، سرير واسع ومنخفض تغطيه شراشف حريرية، مقدمته رائعة مصنوعة من الخشب القديم، في وسطه مرآة كبيرة. رمت نفسها عليه وهي تبتسم. شاهدت من فوق رأسها صورتها تنعكس وتنحرف وشعرت بأنه سرير من ألف ليلة وليلة.

قطع اليوت فجأة حبل أفكارها.

- إنه يناسبك كثيراً..

جفلت ايزوبيل فهبت واقفة عندئذ راح اليوت يضحك.

- لم أسمعك تدخل.

- طرقت على الباب ولكن ليس بقوة.

رأت عينيه تتفحصان قامتها من رأسها إلى أخمص قدميها.

- أعتقد أن ثيابك الغربية لن تنسجم مع المحيط هنا. سنشتري لك ثياباً على الطراز المراكشي من الحرير الأصلي.

قاطعته ايزوبيل: «ويشمك مطرز بالتخاريم».

فابتسم اليوت وقال لها: «آه! لا لن ترتدي شيئاً يغطي وجهك».

لامس خدها برقة وهو يتكلم فأحست برعشة تسري في أوصالها.

- تعالي الآن لنشرب بعض القهوة ولنضع مخططاتنا.

بعدما حضر لهما بعض القهوة الكثيفة الحلوة جلس على أحد مقاعد الديوان ومدّ قدميه الطويلتين.

- جمعت بعض المعلومات عن هذا الفندق.. إنه مشهور استقبل بين جنباته عدداً كبيراً من الضيوف المشهورين، وأصحاب الفندق يفتخرون بسجل الضيوف الكبار.. هناك شيء علينا معرفته الآن: هل نزلت هنا تحت اسم مستعار أم نزلت في فندق آخر؟

ـ أتوقع أنني قد نزلت في فندق آخر أو في نزل بسيط، فهذا الفندق تعرفته باهظة جداً.

ـ أشك في ذلك... نحن هنا لسنا في روما أو في باريس. في فاس ثلاثة فنادق على طراز هذا الفندق. والأوروبيون لا ينزلون عادة في الأماكن الصغيرة خاصة إذا كانت المرأة بمفردها.

ـ لكنك ذكرت أنني لم أكن بمفردي.

ـ في مطلق الأحوال لا فائدة من الذهاب إلى الفندقين الآخرين للبحث.

هز كتفيه: فلنتمشى في المدينة القديمة ولنكتشف المدينة، إنها رائعة! من يعلم ربما ترين فيها ما يُرجع إليك ذاكرتك عن طريق الصدفة وإذا لم يحصل ذلك...

توقف وراح ينظر إليها. في نبرة صوته شيء غريب جعل وجهها يتورد خجلاً.

ـ وإذا لم يحصل ذلك؟

ـ عندئذ سنجرب طريقة أخرى.

ابتسم وقادها إلى الأمام بيده...

بدت المدينة من التلة الموجودة فوقها، ساكنة وهادئة. أسوارها وأبراجها وقبابها بدت بنية اللون كزهرة ذابلة تحت أشعة الشمس في الشتاء، تماماً كلون الأرض التي تحيط بها. لكن عندما قادها اليوت عبر الشوارع الضيقة في وسط جماعات من الأولاد المندفعين، وصولاً إلى القوس الكبير في المدينة القديمة، أحست بعينيها وأذنيها وأنفها محاطة وغارقة في مجموعة من المشاعر المتضاربة.

كانت رائحة المدينة مزيجاً غريباً من الناس والحيوانات ومن خشب الصندل، ومن بيوت القهوة الصغيرة التي كانا يمران بها ومن شذى الشاي المطعّم بالنعناع. ثم انعطفا حول إحدى الزوايا، فوجدا أنهما أصبحا في الشوارع التجارية.

قادها اليوت وهو متردد كأنه أضاع الطريق ثم مشى معها بسرعة نحو

مخزن صغير داكن في منتصف الطريق: هذا هو المحل كما أعتقد.

توقفا ثم دخلا إلى المخزن الذي كان فيه رجل عجوز يحتسي فنجاناً من الشاي المطعّم بالنعناع... بدا كأنه جالس في مغارة علاء الدين، محله مملوء بأشياء غريبة قطعت أنفاس ايزوبيل لشدة ما أعجبتها. هناك وشاحات من الحرير معلقة وتخاريم مطرزة كزهور الحدائق ولفّات من الحرير المتعددة الألوان، وألبسة قديمة ثمينة وثمة عقود وأساور وخواتم من الفضة والتوركواز والزمرد والياقوت وقد عُرضت كلها على طاولة قديمة مغطاة بشرشف من الحرير المطرز.

ـ تعالي معي.

وأدخلها إلى وسط المحل فوقف الرجل العجوز وانحنى أمامها بتهذيب.. عندما جلست ايزوبيل صفق العجوز بيديه، فحضر ولد ووضع أمامها فنجاناً من الشاي بالنعناع. بينما كانت جالسة تتأمل، رأت اليوت يتحدث مع صاحب المخزن بخصوص الأسعار بالإنكليزية وطوراً بالعربية أو الفرنسية.

ظلت ايزوبيل تحتسي الشاي وتنظر بإعجاب إلى تلك الأشياء الغريبة المعروضة أمامها بألوان عديدة بهرت عينيها، ثم أغمضت عينيها منزعجة من صوت العجوز ومتعبة من السفر في الطائرة ومن السير على الأقدام في الشوارع الضيقة. كان الجو حاراً داخل المخزن الصغير، وتناهت إليها رائحة خشب الصندل المشتعلة.

الحجر اللازوردي... سمعت صوت اليوت كأنه يتناهى إليها من مكان بعيد.. ثم شعرت بفكرها يلتقط صورة ما ويتأهب: «كنت هنا من قبل». اندفعت الفكرة إلى رأسها من لا شيء. فتحت عينيها ونظرت حولها فرأت اليوت منحنياً فوق إحدى الطاولات.. رأت شكله فقط وخطوط وجهه الجانبية ومنكبيه العريضين: «مع يوليوس، مع يوليوس».

هذا ما قاله لها فكرها.. مع يوليوس.

استقامت في جلستها وشعرت للحظة بفكرها يتشبث بما تخيلت، ثم

سرعان ما اختفى ما تحاول التمسك به في الذاكرة. بدت كأنها تحاول أن تمسك بحلم ولكن الحلم توارى واختفى.. ربما خلال هذه اللحظات تقطعت أنفاسها، وهذا ما جعل اليوت ينظر إليها بقلق ويسألها: ايزوبيل، هل أنت بخير؟

- أجل أنا بخير.

بدا صوتها طبيعياً ولكن الذكرى اختفت فجأة كما جاءت. شعرت بالعرق يتصبب من جبينها، ثم عاد الهدوء إليها.

ودعهما صاحب المخزن بلباقة، كان اليوت يحمل بين يديه أغراضاً كثيرة قدمها لها.

- هل تذكرت؟ هل حدث لكِ شيء في هذا المحل؟

أومأت ايزوبيل برأسها وأخبرته، فضغط على شفتيه.

- إنك متعبة وشاحبة جداً. تعالي، سأعيدكِ إلى الفندق حيث سنتناول بعض الطعام ثم تخلدين إلى الراحة.

أمسكها بيده ومشى في طريق العودة. توقف فجأة وسألها بترقب:

- هل أنتِ أكيدة أن هذا كل شيء؟ أليس هناك أي شيء آخر؟

أجابته ايزوبيل ببرودة: لا، لا شيء... تماماً كما قلت..

انطلق اليوت بها بخطى سريعة.

* * *

- هل تعرفين؟ عيناكِ لازورديتا اللون لذلك اشتريت لك هذا الحجر الكريم الأزرق الداكن المطعّم بالذهب.

ابتسم ووضع العلبة إلى جانبها في السرير.

- شعرك أيضاً ناعم كالحرير. اشتريت لك هذه...

ووضع علبة أخرى إلى جانبها.

- خصرك رفيع ورقيق. هذه الهدية تناسبه.

ووضع بعناية علبة صغيرة في راحة يدها.

- وهذه الهدية لا أدري لماذا اشتريتها، ليس هناك سبب معين لكن

أعتقد أنها أعجبتني.

ثم وضعها أمامها. توقف وهو ينظر إليها ويبتسم.

- الوقت متأخر، نمتِ لمدة طويلة. انظري، ايزوبيل الوقت ليل.

رفعت عينيها نحوه ثم حولتهما إلى النافذة، في الخارج كانت السماء سوداء ومتألقة بالنجوم.

- انتظرت استيقاظك بفارغ الصبر. والآن أرجو منك أن تفتحيها وترتديها من أجلي.

رفعت ايزوبيل عينيها على مهل نحو وجهه بثقل في جفونها وشعرت بأنها غير قادرة على التخلص من نعاسها ومن حلم لا يمكنها أن تتذكره، حلم ترك وراءه شعوراً خفياً من البهجة والحرارة.

قالت له بهدوء وهي تمزح شاكية: عانقني، عانقني لأنهض، أنا متأكدة من ذلك.

ابتسم لها هازئاً: حبذا لو فعلت ذلك! والآن أرجو منك أن تفتحي هذه العلب!

جلست ايزوبيل ورفعت شعرها المتناثر على وجهها إلى الوراء.

راحت تفتح الواحدة بعد الأخرى وأناملها ترتجف.. فتحتها كلها إلا العلبة التي كانت ما تزال في يده.

رفعت نظرها إليه بخجل وسرور: اليوت، إنها جميلة، رائعة، لم أرَ قط مثلها ولم يهدني أي شخص شيئاً مماثلاً لها.

اقترب منها ووضع لها عقد اللازورد والفضة حول عنقها: «هذا العقد هنا لينافس عينيك. تبدين الآن كالآلهة الوثنية».

أمسك بين يديه حزاماً قديماً مصنوعاً من الجلد الثمين والمطعّم بزهور من الفضة: وهذا ليزين خصرك. ثم أمسك الوشاح الحريري الأصفر الذي يتساقط ليغطي الجسم، ثوب فُصّل ببساطة ساحرة وهو رداء من الحرير الممتاز. عندما وضعته ايزوبيل فوق يدها، بدت بشرتها تتوهج من خلاله.

- عندما تلفينه أمام الضوء يصبح بلون الحليب وعندما ترتدينه فوق

ثياب كثيفة يصبح بلون العسل. إنه ثوب زفاف، فالمرأة العربية ترتديه فوق جسمها أو فوق ثيابها.

توقف: على كل حال، هل ترتدينه من أجلي؟

رفع وجهه وهو يتكلم فالتقت عيناه بعينيها. نظرت إليه ايزوبيل بصمت وعرفت خلفية كلماته وعلمت ما قد يحدث بالتأكيد إذا ارتدت هذا الثوب الآن. وشعرت أنه بطريقته الخاصة قد حذرها من ذلك. ساد الصمت عدة لحظات وأصبحت الغرفة معتمة ثم برقت بالأضواء، ثم عادت مظلمة من جديد. أحست أولاً أن الوقت جامد من دون حراك ثم أخذ يدور بسرعة، وأحست به مرة ثانية كأن فيه شيئاً من السحر وكأن كلمات اليوت الجافة هي تعويذة سرية.. عندئذ وقفت وقالت له: أغمض عينيك.

أغمض عينيه كأنه أعمى، ترددت لحظة ثم نزعت عنها ثيابها الغريبة.

بعد ذلك تناولت الثوب وأدخلته من فوق رأسها فانهمر من عنقها حتى كاحل قدمها، ولف جسمها برقة فبدت به ساحرة.

أخيراً قالت له برقة: افتح عينيك، ففتحهما اليوت.

نظر إليها بصمت ثم وقف ببطء ثم عاد ينظر إلى وجهها بهدوء ثم أخذ يردد اسمها. عرفت أنه سؤال وأحنت رأسها، عندئذ دنا منها وغمرها بين ذراعيه، وانحنى يعانقها برقة في البدء ثم ضمها بين ذراعيه واشتد عناقه ثم سرعان ما راح يعانقها بقوة وشراهة.

شعرت بالنار تحرقها والتصقت به بلهفة وتوق حتى تلاشت كل أفكارها. لم تعد تشعر إلا بوجوده..

فجأة لم يعد يتمالك نفسه فراح يعانقها ويردد اسمها: «ايزوبيل.. ايزوبيل».

ثم راحت عيناه تحدقان إليها وراحت هي أيضاً تنظر إليه بحب وشوق. ثم عاد فانحنى إليها يعانقها بشغف.. بقوة وبتوق.

قال لها وكأنه يتألم: يجب أن أعرف... أخبريني... ثم انقطع صوته.

سحبت نفساً عميقاً وعيناها في عينيه، ثم بكل تصميم رفعت يديها عن يديه وتركتهما يتمهلان على وجهه، ثم رددت اسمه بصوت يحترق من اللهفة وبثته مشاعرها وهي تقول إنها تريده وإنه لا وجود بعد الآن لأي شبح من الماضي قد يفرق بينهما.

صدقها، عرفت ذلك عندما أطبق عليها بشغف ليضيعا في غابة من المشاعر التي لا قرار لها.

فكرت في خضم هذه المشاعر المجنونة أنها كانت معه.. نعم سبق أن كانت معه في هذا الوضع ووسط هذا الجنون.. كان يردد اسمها وأشياء أخرى فضاعت. كان يردد: «أجل ايزوبيل، أجل».

فوشوشت في أذنه: «أحبك اليوت، أحبك».

طوقته بذراعيها وتمسكت به مقابل قلبها.

* * *

٧ ـ الماضي لن يعود

أخيراً، عندما تسللت أضواء النهار إلى الغرفة عبر الستائر، انزلقت ايزوبيل من بين الشراشف وجلست إلى مؤخرة السرير العريض وألقت نظرها عليه وهو نائم ففاض قلبها حناناً ورضى..

فكرت أنها لم تذكر الماضي أو أي شيء منه.. وها هي تشعر بالحرية، شعرت أنها حرة وهو شعور لم تعرفه منذ خمس سنوات.. كأن الماضي مات ورحل إلى الأبد.. تعجبت كيف كانت حريصة على تلك السنوات الخمس الضائعة وكيف اختفى هذا الشعور لديها الآن؟ لم يعد يهمها الآن أن تعود إليها ذكرياتها المتعلقة بتلك السنوات، فالذكرى التي تهمها الآن هي ذكرى هذه الليلة، وهذا المكان، وهذا الرجل. ما يهمها الآن هو الحاضر والمستقبل. تحرك اليوت قليلاً، ينتظر منها أن تقول له شيئاً جميلاً.. عندما ظلت صامتة سحب ذراعه عن السرير وأمسكها، أسرعت واندست في السرير إلى جانبه. لفت ذراعيه حولها برقة وحنان وهي تشعر بسعادة تضيء قلبها. أدارت وجهها نحوه على الوسادة ونظرت في عينيه وقالت له: «أحبك اليوت».

شعرت به يلف ذراعه من حول خصرها بقوة. أجابها بهدوء: «هل تحبينني؟ هل تحبينني فعلاً؟».

جواباً على سؤاله، ضغطت وجهها على عنقه فضمها إليه برقة. فكرت مرة ثانية أنه ينتظر، ولكن ماذا ينتظر؟ إنها تشعر بتوتره، فلماذا؟ ولكنه لم يقل شيئاً بل جذبها إليه بقوة وحاول الجلوس في السرير. ابتسم ومد يده إلى

الطاولة الموجودة إلى جانب السرير وتناول العلبة التي نسي أمس أن يقدمها لها:

ـ تعالي، أريدك أن تأخذي هذه.

ناولها إياها فظنت أن يده ترتجف قليلاً.. نظرت إليه، لكن عينيه لم تقولا شيئاً بل كان فيهما نوع من السؤال والاستفهام والغموض. راحت بهدوء وتردد تنزع الغلاف عن العلبة وفتحتها.

أسرع اليوت وأخذها منها قبل أن تستطيع الكلام، رفع غطاء العلبة وأخذ الخاتم من داخله. عندئذ راحت ايزوبيل تحدق إلى الخاتم الذي وضعه على راحة يده. إنه دائرة صغيرة من الذهب شبيه بخاتم الزفاف. رفعه حتى استطاعت أن تلاحظ أن سطحه الخارجي كان مالساً بسيطاً، لكنه كان مزخرفاً من الداخل. اقتربت فوجدت أنه لم يكن هناك أي تاريخ أو أي اسم بل وجدت علامة معقدة وحرف «I» محفور مرتين، والحرفان متداخلان في بعضهما.

رفعت عينيها نحوه وقالت بدهشة: «إنه أول حرف من اسمي، حفر مرتين».

ابتسم ابتسامة فيها بعض السخرية لم تلحظها وأجابها: «هكذا يبدو».

ثم أمسك يدها اليمنى ووضع الخاتم في إصبعها وهز رأسه وهو يقول: «إنه ضيق كثيراً، فلنجرب اليد الأخرى».

أمسك يدها اليسرى ببطء ووضع الخاتم في إصبعها الثالث وبدا مناسباً. في هذه اللحظة أطبقت يده على يدها والتقت نظراته بعينيها الزائغتين اللتين اتسعتا باستغراب فهي لا تدري ماذا يعني له أو لها هذا الخاتم وهي خائفة أن تتأكد ماذا يعني ذلك بالنسبة إليه.

كأنه قرأ أفكارها إذ رفع يدها وقبلها وهو يقول «هذا خاتمنا، وهو يعني ما تريدينه أن يعني».

توقف كأنه يريد أن يقول شيئاً ثم قرر أن يبدله بشيء آخر: «أعتقد أنه يعني الميثاق والترابط بيننا».

ـ الوثاق! الصلة!

ـ أجل هذه صلتنا.

رددها فجأة وأخذ يدها ووضعها على بشرته فبدا كأن تلك اليد وذلك الخاتم قد التصقا به.. كانت صراحته كشيء يلمع في الظلام، ثم رأت في عينيه بريقاً يتحداها أن تنكر ما يشعر به وما تشعر هي به أيضاً. عصف هذا الشعور بجسدها كأنه نار تتصاعد من أعمق أعماقها.

عندما تنهدت، نظر إليها وأمسك شعرها بلطف وهو يحاول أن يدعها ترفع نظرها إليه ثم قال لها:

ـ انظري إلي، انظري إلي. لا تغمضي عينيك ولا تديري وجهك، انظري إلي، أريد أن أراك وأرى وجهك.

أرجعت ايزوبيل رأسها إلى الوراء متظاهرة بالانزعاج ولكنها كانت تشعر بالغبطة والسعادة.

قال لها بغضب: «افتحيهما وانظري إلي، الآن الآن...».

فتحت عينيها.. وفكرت في أنه يتوقع أن يجدها متضايقة ثم رأت في وجهه ما يدل على أنه ينتظر جواباً.. إنما جواباً عن ماذا؟

ولكنها لا تعرف ماذا ينتظر وماذا يريد وبدل الإجابة عن ذاك السؤال الصامت رفعت يديها وطوقت كتفيه بذراعيها ونظرت إليه.

قالت له بدورها: انظر إلي أنت، هل تنظر إلي؟ أريد منك أن تعلم أيضاً ماذا أشعر، ماذا أشعر وأنت قربي.

أطلق صرخة وهو يغمرها وأحسا معاً بسرعة بقوة المشاعر التي تعصف بهما.

سألها بصوت أجش:

ـ هل ستنسين ذلك؟ أخبريني أنك لن تقدري أن تنسي بعد اليوم كما لن أستطيع أنا أيضاً أن أنسى ذلك.

تشبثت به بشوق وقلبها يخفق من الحب الذي تكنه له، فأخفى وجهه في عنقها ولكن ليس قبل أن تلاحظ ايزوبيل الدموع مترقرقة في عينيه.

بدت لها الأيام التالية جنة من السعادة.. وتمنت أن يتوقف الوقت لتظل هكذا إلى الأبد إلى جانب اليوت، فهي لن تنساه أبداً مهما حصل. ستتذكر تلك الأماكن الجميلة التي زاراها معاً. ذات يوم خرجا إلى الصحراء جنوبي فاس. كانت الجبال هناك زرقاء في الأفق، تعلو قممها الثلوج. في يوم آخر ذهبا إلى الشاطىء وجلسا تحت شمس الشتاء يتأملان مياه البحر الأبيض المتوسط. في أحد الأيام حضرا زفافاً عربياً وفي يوم آخر حضرا مأتماً وراحا ينظران وهما متماسكا الأيدي. ثم ذات ليلة رقصا على ضوء الشموع وفي ليلة أخرى تمددا أمام النار في غرفة ايزوبيل وظلا يتحدثان حتى بزوغ الفجر.

تذكرت كل تلك الأحداث وتمسكت بها وقلبها مفعم بالسعادة، لا تتذكر بالتأكيد كيف حصلت بالتسلسل وفي أي يوم، لكنها كانت واضحة في ذهنها يضيئها الفرح الذي تشعر به برفقة اليوت. كان وقاره، وفطنته ومفاجآته التي بدأت تدركها يوماً بعد يوم تزيد حبها له أكثر فأكثر.

لم يقل لها قط إنه يحبها لكن لا يهمها ذلك، فهي تشعر بحبه كلما لمسها.. إنها تضع في اصبعها الخاتم الذي أهداها إياه وهي لا تنزعه حتى عندما تغتسل.

قالت له ذات يوم وهي تلف ذراعيها حول عنقه وتنظر إليه بتركيز: أشعر كأن ماضيَّ رحل إلى الأبد. لا أهتم بعد الآن إن لم أجده، ولا أفكر أن ذلك سيحصل.

أجابها اليوت متجهم الوجه: عندما نعود إلى انكلترا، ونحن مضطرون للعودة قريباً، ربما لن تشعري هناك بما تشعرين به هنا.

أجابته ببساطة: «سأشعر به». ابتسم لها اليوت برضى ولم يقل شيئاً.

قررا العودة نهار السبت. نهار الجمعة تركها اليوت بعض الوقت وقال لها: لن أتغيب طويلاً.

كان بحاجة لبعض الوقت ليحضر معاملات الرحلة، عندما ذهب

أرادت الاتصال بانكلترا كما أخبرته. تكلمت مع المدبرة السيدة سبنسر التي قالت لها: إن بوبي اتصلت بالمنزل مرتين وإنها مشغولة البال بسبب غيابك فقلت لها إنك بخير ولا داعي للقلق.

ـ هل أنت متأكدة أنك قلت لها ذلك؟

ـ أجل، أنا متأكدة، أرادت رقمك للاتصال بك وعندما أجبتها أنك لم تتركي أي رقم غضبت وأقفلت الخط. فقلت لها إنك ستتصلين بها حالما تعودين. فأجابت إن ذلك لا ينفع لأنها مغادرة، لكنها ستعاود الاتصال بك نهار الأحد.

ـ حسناً سأعود غداً. سأكون على العنوان السابق في ديفون بعد ظهر السبت. وهناك سأتصل.

أقفلت الخط وهي تشعر ببعض الذنب. لم يكن ذلك خطأها لأنها حاولت الإتصال ببوبي قبل أن تترك انكلترا، على كل، يبدو أن القضية منتهية ما دامت هنا مع اليوت، وهي بالتالي لها حياتها الخاصة لتعيشها.

جلست لبعض الوقت في الحديقة الصغيرة خارج غرفتها وقد أسندت رأسها إلى الوراء إلى جدار الشرفة لتتمتع قليلاً بدفء شمس الشتاء الجميلة. كانت أضواء الشمس تنعكس على خاتمها الذهبي فسحبت ايزوبيل يدها إلى الوراء وضاع فكرها مع اليوت. يبدو هذا الخاتم غريباً وعجيباً، لم يقل لها اليوت أي شيء عنه ولكنها كانت مسرورة جداً بوضعه دائماً في إصبعها وما دامت الآن بمفردها فلا بأس بالتفكير فيه.. هناك أسئلة كثيرة تدور حول الخاتم وليتها طرحتها عليه. هل اشتراه هنا في فاس مع الأشياء الأخرى؟ ربما كان ذلك معقولاً ولكنها تشك في ذلك فكل الحلي التي شاهدتها هنا في المحلات فضية ولم تلحظ قط حلى ذهبية. كما أن هذا الخاتم مصنوع في الغرب، فالأحرف المحفورة عليه غربية.. هل اشتراه من انكلترا قبل سفرهما؟ تأثرت بهذه الفكرة وابتسمت وهي تنظر إلى الخاتم الذهبي في إصبعها.

الحرفان الأولان المتشابهان غريب أمرهما أيضاً. نزعت الخاتم وراحت

تتأملهما عن كثب متعجبة، فالحرفان متشابهان تماماً كلاهما حرف I وهما مترابطان داخل بعضهما.

هبّ نسيم بارد في الحديقة الصغيرة، فشعرت بالبرد وارتجفت. وضعت الخاتم في اصبعها بسرعة، ونظرت إلى ساعتها. إنها الساعة الثانية عشرة ظهراً وثلاثون دقيقة. خرج اليوت منذ أكثر من ساعة وهي تفتقده ولكنها بالمقابل شعرت أن الاضطراب الذي كانت تحس به في الماضي قد اختفى من قلبها.

ظهرت أمامها فجأة حقيقة عودتها إلى انكلترا، ماذا سيحدث هناك؟ أين ستذهب؟ أين ستعيش وماذا ستفعل لتجد عملاً؟ وماذا يمكن أن يحدث بينها وبين اليوت؟

ظهر الاضطراب على محياها، فخرجت من غرفتها وذهبت إلى صالة الاستقبال في الفندق. وهناك وجدت محلات تعرض جرائد ومجلات انكليزية، وقررت أن تشتري مجلة وأن تطلب بعض القهوة وتنتظر اليوت هناك.

كان الفندق هادئاً ومعظم الزبائن والضيوف في الخارج. كانت قد قررت العودة إلى غرفتها عندما حياها مدير الفندق.

إنه شاب يافع يدير الفندق بكفاءة كبيرة. حياها وأحنى رأسه وأخبرها أنه حزين جداً لأنها سترحل غداً ورجا أن يكونا سعيدين، وأن تعود ذات يوم.

ابتسمت ايزوبيل وقالت له: «إنها سعيدة جداً هنا». بدا المدير مسروراً جداً، ثم راح يخبرها عن تاريخ الفندق وكيف بدأ عمله هنا.. كانت ايزوبيل تصغي إليه بفضول، ثم أخذها المدير إلى جهة من مكتبه ليطلعها على سجل الفندق وهو يقول لها: بالطبع قد نزل في هذا الفندق ضيوف مشاهير... سأكون شاكراً لك لو تفضلتِ وألقيتِ نظرة على سجلنا الذهبي.

ترددت ايزوبيل، لكن اليوت لم يعد حتى الآن فلماذا لا تلقي نظرة..

ابتسمت ووافقت. طلب إليها الجلوس في مكتبه وأمر لها بفنجان من القهوة وأخذ يطوي أمامها مجموعة من الصفحات الجلدية التي راحت ايزوبيل تنظر إليها بإعجاب. شعرت أخيراً بالملل فطلبت منه أن يطلعها على السجل الحديث أي منذ خمس سنوات.

ابتسم المدير وما هي إلا لحظات حتى وضع أمامها سجلاً آخر. رن الهاتف فقدم لها المدير اعتذاراته ورجاها أن تتصفح السجل بمفردها ريثما يعود. نظرت إلى الكتاب وهي مترددة. اليوت قد ألقى نظرة بنفسه على هذا السجل وهي بدورها قررت أن تترك الماضي وشأنه وها هي الآن تتعرض للتجربة.

فتحت السجل بيدين مرتعشتين فأخذت تطوي الصفحات بسرعة حتى وصلت إلى فترة الميلاد وإلى الثالث والعشرين من شهر كانون الأول إلى التاريخ المدون على جوازها. راحت تقرأ أسماء عديدة كانت بمعظمها فرنسية.. إنها تضيّع وقتها إذ لم تجد أي أثر لاسم لاتمير أو سانت ايوين.

فجأة توقفت أناملها وهي تقرأ عواميد الأسماء فشعرت ببشرتها تتجمد وبشفتيها ترتجفان. لم تصدق ما رأت وتعجبت كيف لم ينتبه اليوت لذلك.

في الرابع والعشرين من شهر كانون الأول، منذ خمس سنوات قرأت في السجل: السيد والسيدة دي لاهاي. وكلمة دي لاهاي مسبوقة بحرف E. ليس هناك أي عنوان، بل كلمة انكلترا مكتوبة بالحبر الأسود وليس بخطها.

حدقت إلى الصفحة خافقة القلب بسرعة، شعرت بالجفاف في حلقها. لم يكن هناك أي شك في ما تراه. لا بد أنها كانت هنا وليس لوحدها... نزلت هنا كزوجة شخص ما: زوجة ادموند.

ظلت تنظر إلى الصفحة من دون أن تصدق. ادموند؟ هذا مستحيل لكن ليس هناك من خطأ، فحرف E ظاهر بوضوح لا يمكن تأويله بحرف J. ارتجفت وأسندت ظهرها إلى طرف الكرسي وأغمضت عينيها وهي تحاول التفكير.

ادموند؟ ادموند؟ الأخ الآخر، ولكنها لا تتذكر أي شيء عنه، لا شيء

قط. قالت لها بوبي إنها كانت تفضله على أخيه لأنه كان طيب الخلق، هذا كل ما تعرفه عنه.. ثار تفكيرها فصرخت بيأس: ذلك مستحيل. إنها تتذكر يوليوس الذي مات، يوليوس الذي كان يعيش في أحلامها. يوليوس وليس ادموند.

ظلت عيناها مغمضتين وحاولت عبثاً أن تجد حلاً لهذا الغموض والالتباس الذي اكتشفته. فهي جاءت إلى مراكش، كانت على علاقة مع شخص. ادموند كان حبيبها وليس أخاه، وادموند ما زال على قيد الحياة.

ضاق نفسها ففتحت عينيها ونظرت إلى الصفحة من جديد وحاولت استعادة رباطة جأشها وتركيز تفكيرها. بعد وقت قليل عاد الهدوء إليها، فنظرت إلى خاتم اليوت الذي يلمع في اصبعها ثم أقفلت السجل.

إنه الماضي، ويجب أن يظل في الماضي. مهما حصل فقد انتهى وتلاشى. ادموند دي لاهاي كان طيفاً وخيالاً، وهو لا يعني لها شيئاً. إذا كان حياً فهي لا ترغب في رؤيته أو الاتصال به في مطلق الأحوال لأنه لم يتصل بها قط، وإذا عرف اليوت ذلك من دون شك، فلا بد أنه وجد أن من الأفضل لها عدم معرفة ذلك وهو على صواب.

وقفت وشعرت بثقة جديدة. لن تقول له شيئاً... ستنسى كلياً أن ذلك حدث وتمشي وفقاً لغريزتها وحدسها كما فعلت الأسبوع الماضي، ستفكر فقط في الحاضر والمستقبل وستظل سعيدة مع الرجل الذي تحب.

أعادت السجل بسرعة إلى مكانه على الرف مع السجلات الأخرى، وخرجت من الغرفة وهي تفكر أن ما حدث معها الآن هو نهاية الماضي المفقود. خرجت من الفندق بخطى جديدة ثابتة وانتظرت تحت أشعة الشمس الدافئة، ومن هناك سمعت صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة فشعرت بالهدوء والسلام. بعد خمس دقائق عاد اليوت فحفت إليه لتستقبله.

ـ هل أنتِ حزينة لأننا راحلان؟

ـ أجل.

ـ لا تحزني! سنعود مرة أخرى ذات يوم.

ابتسم اليوت لها وضغط بلطف على يدها، فشعرت بالفرح والرضى.

* * *

حلقت الطائرة في الجو وراحت تميل من وقت إلى آخر.. كانت ايزوبيل تنظر من النافذة إلى الحقول المحروثة وإلى المستنقعات الرمادية.

ـ إذا كنتِ تتمنين العودة فها أنتِ الآن في سماء انكلترا.

ـ أجل أتمنى ذلك.

ـ ها نحن الآن في انكلترا وفي الشتاء من جديد. سيذوب الثلج قريباً. في هذا الوقت سنعود مباشرة إلى «بريوري» وهذا المساء بعد العشاء سنجلس أمام المدفأة ونشعل بعض عيدان الصندل التي ألححتِ على شرائها لتذكر أنفسنا بمراكش وعندئذ ستتكلم ونضع المخططات.

حدقت إليه ايزوبيل وسألته: «وبعد ذلك؟».

ـ لا يهم ما سيحدث بعد ذلك، فثمة أشياء لا تتغير.

نظرت إليه ايزوبيل بفضول لأنها شعرت بنبرة غريبة في صوته.

ـ هل تعتقد ذلك اليوت؟

أجابها وهو ينظر إليها بوقار: «أجل أعتقد ذلك، أؤمن بذلك لكلينا».

نظر إلى البعيد كأن هذا الوضع طال كثيراً وهو يأسف على تهاونه في ذلك.

ابتسمت ايزوبيل وهي تفكر في الطريقة الغريبة الغامضة التي يعبر فيها هذا الرجل الغريب المتحفظ عن مشاعره.

أحبه، أحبه كثيراً. في هذه الليلة سأخبره بذلك، سأخبره ماذا يعني لي وكيف غيّر حياتي.

ـ سنحط الطائرة بعد قليل.

عادت ايزوبيل إلى المقعد حيث تركت معطفها فأمسك اليوت يدها وهو يبتسم ويقول لها بغموض: «اتركيه، لن تحتاجيه بعد الآن».

لم تفهم ماذا يعني حتى أصبحا خارجاً ففتح باب سيارة B.M.W

السوداء: إليكِ هذا.

وسحب شيئاً كان موضباً بعناية في مقعد السيارة الخلفي.. نظرت إليه ايزوبيل وهي لا تصدق... إنه معطف من الفراء الثمين الناعم وهو أجمل معطف رأته في حياتها. ابتسم اليوت عندما شاهد تعابير وجهها. قال لها بصوت هادىء: «هل أعجبك؟ إنه من جلد السمّور ومن المفروض أن يشعرك بالدفء».

ـ اليوت، لا تكن سخيفاً، لا أقدر...

قاطعها بسرعة وأجابها: لا أحب مجادلتك هنا، والآن ضعيه عليك قبل أن تتجمدي. أوصيتُ بشرائه من مراكش. ربما كان مقاسه غير مناسب.

أمسكها بيديه وألبسها المعطف الذي بدا مناسباً جداً وكأنه فُصّل خصيصاً لها. رفعت نظرها إليه وهي تضحك بإثارة وبهجة: أشعر من عنقي حتى وسط قدمي أنني أرتدي أكثر المعاطف نعومة ودفئاً.

استعرضته ايزوبيل قليلاً وهي معجبة كثيراً به، أما اليوت فراح يراقبها بهدوء.

ـ حسناً! سبق أن قلت لك إنك تشبهين أميرة روسية، ثم فكرت أنه من الأفضل أن نكمّل الصورة. هذا كل شيء.

كان جوابه عفوياً ولكنها رأت شعوراً غامضاً في عينيه. فشعرت فجأة بالدماء الحارة تجري في عروقها.

وما هي إلا لحظة حتى كانت بين ذراعيه. طال العناق حتى قال: هيا بنا أدخلي إلى السيارة ولا تنظري إلي هكذا.

وضعها في المقعد الأمامي ثم جلس إلى جانبها وراء المقود وشغل السيارة: «والآن فلنذهب إلى البيت يا حبيبتي».

راح اليوت يقود بسرعة وخبرة، مركزاً انتباهه على القيادة. جلست ايزوبيل بهدوء وصمت على المقعد. كان الضوء شاحباً. أسندت ايزوبيل ظهرها إلى المقعد فالمستنقعات بدت الآن إلى اليمين. أغمضت عينيها وأحست للمرة الأولى منذ حطت الطائرة بهما بشعور غريب من الحزن.

ربما غفت لمدة وجيزة.. تفاجأت عندما شعرت بالسيارة تقف على الحصى، وعندما سمعت اليوت يطلق صرخة تعجب خفيفة. فتحت عينيها ونظرت في الظلام إلى الخارج. كانا قد وصلا إلى بريوري. أضاء اليوت أضواء السيارة، شاهدت هناك تحت الضوء سيارة أخرى. راح ينظر إلى السيارة وهو متجهم الوجه. إنها سيارة فخمة وحديثة جداً، لونها ذهبي لماع.

ـ عندك ضيوف؟

ـ لا أعرف هذه السيارة.

قالها بصوت حاد وبدا منزعجاً.. نظر إلى السيارة ثم هز كتفيه: ربما هناك شخص يريد مقابلة الآنسة سانت ايوين.

ترجلت ايزوبيل على مهل من سيارة B.M.W ومشت نحو السلالم ولكنها في الطريق ألقت نظرة على السيارة فرأت على مقعدها الخلفي مجموعة من الأشياء المختلفة. تجهم وجهها، أما اليوت فمشى حول السيارة وكأنه يريد تحطيمها ثم قال: بحق الله إنها معدات تصوير.

شعرت ايزوبيل بالدم يتجمد في عروقها وراحت الأفكار تتقاذف في رأسها، كان اليوت يراقب السيارة بامتعاض عندما ظهر ضوء المدخل الذي أضاء الساحة ثم انفتح الباب وظهرت السيدة ديرنغ في أعلى الدرج.. بدا الانزعاج واضحاً عليها.. نظرت إلى اليوت بارتباك وقلق وهي تمسك أطراف ثوبها بعصبية.

ـ اوه.. هذا أنت سيد اليوت. سمعت صوت السيارة، وكنت بانتظاركما...

نظر إليها اليوت بغضب وسألها: من تخص هذه السيارة بحق الله؟ مهما يكن، أريد منك أن تتخلصي منه. أخبرتك على الهاتف أنني والآنسة لاتمير قمنا برحلة طويلة وأننا متعبان لذا آخر ما نفكر فيه هو استقبال الناس.

ـ أعرف ذلك سيد اليوت، أعرف ذلك جيداً.

رددت ذلك بسرعة وتقدمت بعصبية من طرف السلالم.

ـ أخبرت السيد بذلك ولكنه لم يرد الاستماع إلي ولم أتمكن من التخلص منه. قال إنه سيبقى طوال الليل في السيارة إذا اضطر وأخيراً فكرت في دعوته إلى الداخل... إنه صديق الآنسة لاتمير.

ساد الصمت قليلاً وأحست ايزوبيل بماء بارد ينسكب على ظهرها. نظرت إليها مديرة المنزل بعصبية، أما وجه اليوت فتجهم..

ـ صديق للآنسة لاتمير؟ هذا مستحيل، أين هو بحق الله؟ سأتخلص منه.

بدأ يصعد السلالم. ثم توقف فجأة وأدار وجهه نحو ايزوبيل:

ـ أعتقد أنك لم تدعي أي صديق إلى منزلي.

امتقع وجه ايزوبيل وأجابته وهي متلعثمة: بالطبع لم أدع أحداً. ولكن...

ترددت فتجهم وجه اليوت: حسناً!

حولت نظرها إلى السيدة ديرنغ: هل أعطاك اسمه؟

ـ أجل. يدعى لبام توماس، وهو ينتظر قدومك ليراك آنسة لاتمير.

شعرت ايزوبيل بصدمة هزت كيانها وأحست بالدم ينفجر من وجهها. كان اليوت يراقبها عن كثب.

ـ هل تعرفين هذا الرجل؟

ـ أجل، لا.. حسناً، ليس بالضبط. أنا... أعرف من هو.

رددت ايزوبيل هذه الكلمات وهي متلعثمة ومرتبكة.

ـ ماذا يفعل هنا إذن بحق الله؟

رفعت ايزوبيل يدها فلمست ذراعه، فسحبها بسرعة: أرجوك اليوت. كل شيء على ما يرام.. أعرف ماذا يريد، ولماذا يريد رؤيتي.. إنها... إنها قضية شخصية. أنا آسفة، من الواضح أنهم أعطوه العنوان في منزل زوج أمي، تركت لهم العنوان بسبب بوبي. أرجوك اليوت، دعني أنفرد به دقائق قليلة، ثم أعدك أن يذهب بعد ذلك وعندئذ يمكننا أن ننساه.

ارتد اليوت خطوة إلى الوراء وتفرّس بوجهها بعينين باردتين غاضبتين لم تر مثيلاً لهما من قبل. كان وجهه شاحباً جداً.. أحست أنه متوتر جداً لذا خافت أن يدخل إلى المنزل ويواجه هذا الرجل بنفسه.

أجابها فجأة بعنف وغضب: حسناً، سأتركك بمفردك معه. لكن تخلصي منه فإن لم يخرج من المنزل بعد عشر دقائق رميته خارجاً بنفسي.. هل تفهمين ذلك؟

صعد السلالم بسرعة ثم سمعت الباب في الطابق العلوي يُقفل بقوة.

أدارت السيدة ديرنغ وجهها نحو ايزوبيل ونظرت إليها بفضول واهتمام:

ـ آمل ألا أكون قد تسببت بأية مشكلة ولكن السيد توماس ألح علي كثيراً وقال إنه يعرفك وإنه جاء خصيصاً ليراك.. حسناً لم أرد التسبب بمشهد مأسوي.

ضغطت ايزوبيل على يدها بلطف وقالت لها: «حسناً لا بأس سيدة ديرنغ، ليست غلطتك. سأتكلم إليه».

عندما وصلت إلى أمام غرفة الانتظار ارتبكت قليلاً واضطربت ثم تمالكت أعصابها وفتحت الباب. كانت الستائر منسدلة والأنوار مضاءة والنار مشتعلة.. أمام المدفأة جلس شاب كان يتفحص الأغراض الموجودة على الطاولة أمامه. إنه مديد القامة، أصغر سناً مما اعتقدت. فهو في الثالثة والعشرين تقريباً، يرتدي سروالاً من الجينز الأزرق وسترة جلدية وقميص أزرق، وكان يمسك سيجارة في فمه. عندما دخلت وقف وألقى عليها نظرة فاحصة وقحة ثم استدار ورمى عقب السيجارة في المدفأة: حسناً! حسناً، لا شك أنك الشقيقة ايزوبيل.. التقينا أخيراً. أنا...

ـ أعرف من أنت.

اقتربت منه قليلاً وهي تتجاهل يده الممتدة لمصافحتها.

ـ ولكن ما لا أفهمه أبداً لماذا أنت هنا؟

ـ أنت لا تدرين؟

تجهم وجهه ومد يده فجأة إلى جيبه. شعرت بعينيه تتفحصانها من رأسها حتى أخمص قدميها وهو يُراقب بإعجاب المعطف الذي ترتديه. ثم رفع حاجبيه بسخرية وقال لها: هذا ما لم أنتظره منك.. لست كما وصفتك لي بوبي. فبوبي كما تعلمين فتاة كاذبة ولكنني شعرت بأنها تغار منك والآن أدرك السبب بالطبع.

أخرج من جيبه سيجارة وأشعلها.

ـ أحب هذا المعطف. غالباً ما كانت بوبي تقول لي إن لك وجه سندريلا.

راح ينظر تارة إلى المعطف وطوراً إلى الغرفة ثم قال لها: «هل أقدر أن أعرف إذا كانت سندريلا قد التقت بفارس أحلامها؟».

نظرت إليه ايزوبيل بغضب: «يمكنك أن تفكر كما تشاء. هذا ليس منزلي كما تعرف.. ولا يحق لك أبداً أن تأتي إلى هنا، أريد فقط أن أعرف لماذا فعلت ذلك وبعدئذ ارحل».

ابتسم ابتسامة صفراء وأجابها بتهكم: «أرحل عندما أشعر أنني مستعد».

استدار بهدوء نحو المدفأة وجلس على الكرسي أمام النار ثم وضع قدميه فوق بعضهما كأنه مصمم على البقاء.

* * *

٨ ـ عدّ إلى الموت!

نظرت إليه ايزوبيل بذعر وامتعاض. إنه رجل كريه... ترى كيف تعاملت بوبي مع هذا النوع من الرجال؟ تراجعت إلى الوراء وقالت له بحدة: أنظر، أدرك لماذا أتيت، لقد جئت من أجل المال، أليس كذلك؟

ابتسم بسخرية وأجابها: حزرتِ بسرعة.

نظر إلى العلبة الجلدية التي كانت موجودة على الأرض إلى جانبه، ثم تثاءب وراح يشرح لها بالتفصيل: ظلت بوبي تراوغ وتكذب علي منذ مدة طويلة والواقع أنه صعب علي أن أتعقب آثار شقيقتك ولكني توصلت أخيراً للاتصال بها هاتفياً إلى جزر الهند الغربية، وقد أجابتني أنها لن تستطيع أن تدفع المال وأنك ستدفعين بدلاً منها، فكان أن انتظرت! ثم اتصلت بها أمس مرة ثانية وماذا وجدت؟ تركت لي رسالة «كل شيء على ما يرام... شقيقتي ستتكفل بالموضوع، ويمكنك الوثوق بها». لهذا السبب جئت إلى هنا، لأقوم بالمقايضة هذا كل شيء. وأنا مسرور لأنه مكان جميل بالحقيقة...

قاطعته ايزوبيل «حسناً لا أريد مناقشة هذا الموضوع بعد الآن، فالرسالة صحيحة سأحصل على المال».

وقف فجأة على قدميه وتناول علبة المستندات: «لا أريد أن آخذ هذا المبلغ بالقوة، والآن أعطيني الظرف السحري لأعطيك بالمقابل هذه العلبة وأرحل».

نظرت ايزوبيل بعيداً، وأجابته: المسألة غير سهلة كما تتصور... تدبرت قرضاً من المصرف، لكنه ليس معي الآن.

وما أشد ما كانت مذعورة عندما رأته يجلس من جديد على الكرسي:

ـ حسناً. ماذا سنفعل الآن؟ الانتظار؟

ـ كلا بالتأكيد.. لا يمكنك الانتظار هنا، أخبرتك أنني تدبرت قرضاً من المصرف الذي في بلدتي. سأتوجه إليه نهار الاثنين وعندئذ سأعطيك المبلغ و..

ـ اسمعي يا حلوتي، ها قد مر أسبوع على الإنذار الذي أرسلته لشقيقتك وقد بدأ صبري ينفد. إن أردت الصور فعليك أن توقعي الآن وإلا عدت إلى لندن ونشرت هذه الصور على صفحات الجرائد صباح يوم الاثنين...

ـ أرجو منك ألا تفعل ذلك. أعدك بشرفي أن أعطيك المال نهار الاثنين، لم يكن من السهل أن أحصل عليه بسرعة أكثر لكن...

ـ لم يكن ذلك سهلاً؟ أنت تفاجئينني.

وقف ودنا منها فأمسك يدها قبل أن تتراجع إلى الوراء وراح يلمس الفراء بأنامله. ثم نظر إليها بوحشية وشدّ بيده على ذراعها: اسمعي لا تقفي أمامي وأنت ترتدين ثروة من الفراء ثم تتكلمين عن قرض من المصرف لن تحصلي عليه قبل نهار الاثنين. ماذا تعتقدينني؟ رجلاً أبله؟ إن لم يكن معك مالاً فأعطني المعطف، وعندئذ أعطيك الصور وننهي القضية بسلام. هل أنت موافقة؟

ـ أعتقد أن ذلك مستحيل.

سمعت صوتاً بارداً صادراً مباشرة من خلفها، ثم سمعت صوت الباب يُغلق قبل أن يدنو اليوت منهما.

ساد الصمت.. ثم شاهدت ردة فعل ليام توماس الذي انفرجت عيناه وترك يدها وتراجع إلى الوراء. كان أقصر قامة من اليوت ثم شاهدت ايزوبيل انزعاجاً في عينيه ولكن سرعان ما تلاشى ذاك الانزعاج فابتسم.

ما هي إلا لحظة حتى كان اليوت قربها.. رفعت ايزوبيل نظرها إليه فإذا عيناه قاتمتان ووجهه شاحب.

مد يديه إلى جانبيه فقالت بينها وبين نفسها: «يا الهي متى دخل؟ وماذا سمع؟».

قال اليوت بصوت بارد: لم أسمع حديثكما بكامله ولكنني سمعت ما فيه الكفاية وأنا أرى أن هناك ابتزازاً وتهديداً. هل هذا يشرح وجودك غير المنتظر في منزلي؟

تفاجأت ايزوبيل بكلامه، لكن ليام لم يشعر بأي إحراج فردد: ابتزاز! إنها كلمة قبيحة... لا، ليس هناك شيء من هذا القبيل.

توقف ونظر إلى وجه ايزوبيل الشاحب: «إنها مسألة عمل فقط هي تشتري وأنا أبيع، إذن مجرد عمل».

بعد صمت وجيز أجابه اليوت: «أنا أعتذر ربما أسأت الفهم، في هذه الحالة لا أظنك تعترض إن اتصلت بالشرطة».

أمسك جهاز الهاتف وراح يطلب الرقم ببرودة وقسوة. نظرت ايزوبيل إلى ليام توماس لحظة ثم دنت من اليوت وصرخت: «أرجوك لا تطلب الشرطة. ليس ذلك ضرورياً».

نظر إليها اليوت ببرودة وأعاد جهاز الهاتف إلى مكانه. كان وجهه قاتماً وعلامات الأسى والغضب في عينيه.

ارتد نحو المصوّر وقال له بهدوء: «بما أن العملية تجري في منزلي وبما أن عبارتك لم ترق للآنسة لامير التي هي ضيفتي، فهل تخبرني ماذا تبيع بالحقيقة وماذا تشتري هي؟».

حاولت ايزوبيل أن تقف بينهما.

قالت: «أرجوك، لا ضرورة لذلك... إذا تركتني لحظة أخرى فسأحلّ المشكلة. إنها مسألة شخصية كما قلت لك».

قاطعها توماس بصوت بارد وهو ينظر إلى اليوت: صور، صور سلبية أنا أبيعها وهي تشتريها.

شعرت ايزوبيل بأنفاسها تنقطع خاصة عندما رأت حاجبي اليوت يتقوسان بتجهم وعلامات الازدراء وعدم التصديق في عينيه.

تابع ليام: إنها صور قديمة، صور كما لاحظت لا تحب ضيفتك أن تراها أو يراها أي شخص آخر، لهذا السبب أنا أبيعها وهي تشتريها. على كل إن لم ترد المقايضة فهذا عائد لها وإن كانت لا تمانع فسأبيعها في مكان آخر.

بعد لحظات من الصمت كانت ايزوبيل تنظر خلالها إلى الرجلين، علمت ماذا يظن اليوت الآن.. رأت تعابير الكراهية في عينيه، فهو يعتقد أن الصور صورها.

وجّه اليوت كلامه بقسوة ووقار إلى المصور وقال له: أنت تقوم بصفقة، هل أستطيع أن أعرف ما هو الثمن الذي تريده؟

ابتسم المصور وأجابه:

ـ تم تحديده منذ أسبوع بالنسبة لعدد الأفلام، خمسة أفلام كل فيلم مقابل ألفي استرليني. هذا يعني عشرة آلاف استرليني.

حدق اليوت إلى ايزوبيل بهدوء. لم يكن في وجهه أي تعبير ولكن نظراته كانت صاعقة ومدمرة.

ارتد اليوت نحو المصور ومد يده إلى أحد جيوبه الداخلية ليسحب دفتر شيكات وقلماً وقال له: في هذه الحالة سأعطيك المال الآن.

انحنى ليحرر الشيك. في هذا الوقت كانت ايزوبيل واقفة تنظر إليه جامدة من الخوف. وما هي إلا لحظة حتى حرر اليوت الشك وأعطاه إياه وقال له:

ـ إنه مسحوب لأمرك من حسابي ومن مصرفي الخاص.. أؤكد أنه مقبول.

بدا على وجه المصور الشك فرفع رأسه ببطء ونقل أنظاره من ايزوبيل إلى اليوت ثم قال له: ربما رُفِض من المصرف؟ كيف لي أن أعرف وأتأكد أنك لن تلغيه بعد ذهابي؟

أجابه اليوت: كيف لي أن أعرف أن ليس بحوزتك صور أخرى. أنا متأكد أن لديك صوراً أخرى وستحاول لاحقاً القيام بصفقة ثانية.. لذلك

لا بد من تبادل الثقة . . أريدك أن تفهم أنني سأدق عنقك بنفسي إن حاولت بعد الآن وفي أي وقت إزعاج الآنسة لاتمير أو إذا رأيت وجهك في أي مكان قريب . .

تراجع ليام توماس إلى الوراء وأجابه: هاي! تروّ، تروّ . . لست مجنوناً، أولاً ليس هناك صور أخرى ولو كان هناك صور فلن أحاول ذلك مرة أخرى، خاصة معك . . أنا لا أقوم بعملية كاذبة. أفهم لماذا أنت قلق جداً للحصول عليها .

ثم نظر إلى ايزوبيل وهو يغمز: أنت لا تريدين بعد الآن فضيحة تزعجك، أنا أكيد من ذلك خاصة مع وجود شخص يحميك بهذه الطريقة . .

قال له اليوت وهو يمد يده: «أعطني الصور من فضلك» .

انحنى ليام وأمسك علبة المستندات وفتحها بهدوء، وأخرج من داخلها ستة أفلام مغطاة رفيعة. وضعها ليام على الطاولة، وأخذ يعدّها واحد، اثنين، ثلاثة. وهو ينظر بوقاحة إلى اليوت .

ما أشد ما كانت دهشة ايزوبيل وذعرها عندما أخرج آخر فيلم من علبته وراح يعرضه أمام الضوء على اليوت ليراه وهو يقول: كما ترى لقد تعمدت أن يظل الوجه غير واضح لكنني محترف فالصورة تصبح واضحة بعد التظهير .

تقدم اليوت نحوه وصرخ بوجهه في غضب:

ـ أخرج الآن؟ اخرج، أو سوف . . .

وضرب بقبضته على الطاولة بعنف .

لم يكن بحاجة للمتابعة فقد كان المصور قد أسرع وأصبح قرب الباب. توقف فجأة وحاول التكلم ولكن أعصابه خانته، فأقفل الباب وخرج بسرعة ثم راح يركض في الممر حتى وصل إلى سيارته وانطلق .

كانت ايزوبيل ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، فارتدت إليه وصرخت باسترحام: «اليوت، أرجوك، اسمعني، ليست المسألة كما

تظن» .

أشاح بوجهه عنها، ثم انحنى وأخذ يلتقط الصور واحدة بعد الأخرى ويداه ترتجفان. ظلت ايزوبيل تراقبه وقد تملكها الخوف والرعب واختفى صوتها. أخيراً استجمعت قواها وقالت له: اليوت، هذه الصور ليست صوري . . أقسم لك أنها ليست صوري .

بينما كانت تتكلم راح اليوت يرمي كل تلك الأفلام في وسط النار، فاشتعلت بقوة واحترقت داخل ألسنة النار .

أدار وجهه إليها والشرر يتصاعد من عينيه. خافت ايزوبيل وتراجعت لا شعورياً إلى الوراء، فقال لها: لا تكذبي، لا تحاولي أن تكذبي علي أبداً بعد الآن. لن أصدقك أبداً، هل تفهمينني؟ أبداً. كذبتِ بشأن المال وكذبت بشأن فقدان الذاكرة، كنتِ كاذبة منذ خمس سنوات ولم تتغيري .

نظرت إليه بعينين زائغتين والخوف يملأ قلبها والغموض يسيطر على فكرها. وراحت تتساءل: منذ خمس سنوات؟ ولكن أنتَ . . .

أمسكها وهزها بقوة وصرخ: كنتُ في الجحيم بسببكِ ليس مرة بل مرتين، لأنني كنت مجنوناً وغبياً . . وأنت بوجهك الجميل البريء تعرفين كيف توقعين الرجل في شباككِ. لا تحاولي الإدعاء بأنك لا تفهمين ماذا أقول! لا تدّعي أنك لا تتذكّرين .

أجابته ايزوبيل بصرخة يأس: «أتذكر ماذا؟» .

أخذ الصداع يضرب رأسها من جديد، وأحست بكل ثنايا جسمها تصرخ من الألم. فمنظر اليوت المخيف ونظراته الحقودة وكلماته الغامضة تضاعف صداعها .

ـ ألا تتذكرين؟ ألا تستطيعين أن تتذكري؟ ألا تريدين أن تتذكري؟ حسناً سأجعلكِ تتذكرين ذلك بالقوة. والآن تعالي معي .

سحبها من غرفة الاستقبال ثم اقتادها إلى الطابق العلوي وفتح باب غرفتها بقوة ودفعها أمامه. أطلقت ايزوبيل صرخة من الألم لأنها وقعت على ركبتيها . . راح الصداع يتضاعف حتى لم تعد قادرة على رؤية ما أمامها. لم

تعد غرفتها أليفة بل شعرت بجدرانها تدور من حواليها وتأخذها إلى عالم مجهول لا نهاية له. لم تلحظ أن اليوت قد أقفل الباب. نظرت إليه والدموع في عينيها:

- دعني أشرح لك. أرجو منك أن تسمح لي، أنت... آه! رأسي يؤلمني.

تجاهل اليوت كلامها. وعندما لاحظت أن الغرفة تعود أمامها إلى ما كانت عليه من قبل وبعدما حاولت تركيز أفكارها رأت اليوت يُدير وجهه نحوها.

تقدم خطوة نحوها فتراجعت ايزوبيل إلى الوراء وهي خائفة يائسة ثم ارتطمت قدميها بالسرير... وارتمت على السرير ووقعت عليه..

ما هي إلا لحظة حتى أصبح قربها على السرير سحبها نحوه بقوة فارتمت أمامه راكعة على قدميها.

لف ذراعيه حولها بعنف وشدها إليه وأرجع رأسها إلى الوراء بالقوة، فأغمضت ايزوبيل عينيها.

قال لها بصوت صارم خشن: «انظري إلي».

جذبها إليه بعنف فصرخت وحوّلت وجهها عنه.

- قلت لكِ انظري إلي.

أدار لها وجهها بالقوة ففتحت ايزوبيل عينيها المغرورقتين بدموع الخوف فرأت وجهه: كان مكفهراً عابساً وشاهدت الألم والحزن في عينيه فصرخت.

سحب نفساً عميقاً وصرخ بوجهها: والآن، ماذا تقولين؟

نظرت إليه بشحوب وهي تحاول التملص من قبضته:

- أقول! أقول؟ لا أدري... ماذا علي أن أقول؟

أجابها وشفتاه ترتجفان: قولي ببساطة: أحبكَ. يجب أن تثق بي. هذا كل شيء.

- لن أقول.. لا أريد.. دعني أذهب.

انقضّ عليها يعانقها بعنف ويأس. فأطلقت أنيناً واستسلمت لعناقه..

كانت الدماء تجري في أفكارها المظلمة كالمطرقة وفي لحظات قليلة شعرت أن ما فقدته من إرادتها ومنطقها قد عاد إليها وجعل جسمها قوياً ومقاوماً ولكنه أقام حائطاً كبيراً بينهما. تشبثت به بيأس.. ثم شعرت بتوترهما يتلاشى وعندئذ أصبحت لمساته أرق وألطف. أما هي فرفعت يديها ولفّتهما حول عنقه.

- أجل، أجل، أحبك، ويجب أن تثق بي.

ترددت أصداء هذه الكلمات في كل جزء منها..

ظل الألم هناك في رأسها لكنه أصبح خفيفاً واختفى كذلك شعورها بالأسى والحزن.

بعد ذلك لم تعد تشعر إلا به فضاعت معه.. ولكنها قبل ذلك نظرت إليه.. إلى تينك العينين القاسيتين اللتين حلمت بهما لمدة طويلة.. إلى تينك العينين الرماديتين اللتين تعرفان تماماً ارتباطهما.

* * *

عندما فتحت عينيها كانت جفونها ثقيلة كأنها تناولت مخدراً: نظرت إليه فرأته ممدداً إلى جانبها وفي جيبه علبة جلدية صغيرة. ارتدّ بكل تصميم وجلس إلى جانبها وسحبها قليلاً نحو الوسادة وراح ينظر إليها. فكرت: لا بد أنه ينظر إليها بحب. أجل، إنه هو.. نعم إنه هو.. مع أنه يجب ألا يكون هو..

وضع ذراعه خلف كتفيها ثم مد يده الأخرى وأمسك ذقنها وأجبرها أن تنظر إليه ثم قال لها بصوت خافت:

- الآن، لن تستطيعي أن تكذبي. أخبريني بحق الله. هل تعرفين من أنا؟

وهزها بلطف.

كانت ايزوبيل تنظر إليه، فازداد انقباضها وتكلمت وهي تعلم تماماً حقيقة ما تقول، واختفى الألم من فكرها أخيراً. فقالت له: أنت يوليوس.

رفعها قليلاً وجلس إلى جانبها على السرير وهو ينظر إليها ببرودة وقال

لها: هناك تقدم أخيراً و...

رفعت ايزوبيل جسمها قليلاً، وقالت: «اليوت ريتشارد يوليوس دي لاهاي».

كان صوتها ضعيفاً غير مسموع تقريباً وكانت تردد ذلك كطفل يراجع أمثولته استظهاراً من دون أن يفهمها.

فقال لها وهو يضحك: أفضل، وأفضل و...

أطلقت صرخة من اليأس وقاطعته: هذا مستحيل، لا بد أنني مريضة، فأنت ميت. يوليوس مات، مات منذ خمس سنوات. وقد أحببته.

قاطعها بحدة: كاذبة، أنتِ تكذبين في كلتا الحالتين. لم أمت، وقد برهنت لك ذلك بوضوح. لم تصدقي قط أنني مت..

ثم تابع بغضب: «وأنت بالتأكيد لم تحبيني آنذاك، والآن أيضاً».

ساد صمت رهيب. نظرت خلاله ايزوبيل إليه من الخلف، إلى الخط القوي القاسي في عنقه. شعرت بالصداع يعود إلى رأسها بقوة ويعمي تفكيرها.

أطلقت صرخة بائسة وضغطت بيدها على جبينها، فاستدار نحوها.

قال لها: «حسناً، سنحاول طريقة أخرى ما دمت تصرين على متابعة هذه الملهاة من دون أن أدري ما هو هدفكِ. لا أقدر أن أفكر أن باستطاعتكِ أن تسامحي نفسك الآن».

تراجع إلى الوراء، أمسك معصمها بقوة وصرخ بوجهها:

- أخبريني اسمك، هلمي، أخبريني.

رفعت ايزوبيل شعرها عن كتفيها ووجهها وقالت له: لا أفهم ماذا تعني: ايزوبيل لاتمير، سانت ايوين. ماذا تريدني أن أقول؟

- لا هذا ولا ذاك وبالأخص الاسم الأخير.

رفع يده عن معصمها ووضعها بيدها اليسرى وضغط عليها. ثم صرخ:

- أنت ايزوبيل دي لاهاي كما تدركين ذلك جيداً، والخاتم الذي

تضعينه الآن في اصبعك هو خاتم زفافك الذي تركته عندما هربت والذي وضعته في اصبعك مرة ثانية لأنني... ساعدني يا الله، لأنني صدقتك.. صدقت أكاذيبك. وفكرت حينئذ أنه سيساعدك لتسترجعي ذاكرتك التي تدعين أنك فقدتها.

قال ذلك وهو يحاول أن يضحك بسخرية: أوه، بالطبع! فكرت أنها ستعود في أوقات أخرى، عندما رأيتني، عندما عانقتك وعدت بكِ إلى مراكش، آه! أجل كنتُ في غاية البلاهة والجنون فصدقتك وعشت في الأمل من أجل كل ذلك وكنت أتألم بصمت وصبر لأنني ظننت أنك لم تستعيديها.

تطاير الشرر من عينيه فجأة وتابع: «لكن ذلك لن يحدث، هل سيحدث ذلك ايزوبيل؟ لأنك لم تفقدي ذاكرتك قط. كنت تمثلين طوال الوقت، في كل ساعة، وفي كل دقيقة. لعنة الله عليكِ! في استطاعتي أن أقتلك من أجل ذلك».

ثم ترك يدها ببطء وسألها ببرودة: «أخبريني فقط شيئاً واحداً، هل ستفعلين ذلك؟ بعد كل الذي جرى، لن تخسري شيئاً. أخبريني لماذا كذبتِ؟ ألأنك وجدتِ نفسك فجأة معدمة وعرفت أني ثري؟ أم لعلك قمت بذلك بدافع الانتقام؟».

توقف لحظة عن الكلام وحول نظره إلى البعيد.. كانت عيناه تشتعلان بالغضب والكراهية. أحنت رأسها ولمست الخاتم في إصبعها، هناك حرفان متشابهان ومتداخلان... ارتجفت وهي تحاول إجبار فكرها على العمل والتركيز.

رددت بصوت خافت متقطع: «أحببتك.. أحببته. أعتقد أنني أحببته عن حق. أنتَ...».

ثم أطلقت تنهداً خافتاً.

- آه! أرجوك. صدقني.. لا أستطيع أن أفكر. لا أدري.. لا أتذكر. رأسي يؤلمني كثيراً.

أجابها بصوت قاس: «إذن سأنعش ذاكرتكِ وأساعدك ما دمت مصرة

على مواصلة هذه المأساة».

وقف ومشى نحو طاولة موجودة في آخر الغرفة: هذه وثيقة زواجنا، فتشت عنها لأريكِ إياها هذه الليلة قبل أن يحدث كل هذا، لأنني كنت أصدقك ولأنه لم يعد باستطاعتي أن أدعي أنني غريب عنك أكثر من ذلك.

جلب الورقة وفتحها أمام الضوء وأضاف: «تزوجتِ مني في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول منذ خمس سنوات في القنصلية البريطانية في مراكش. تدبّر عمي الاحتفال. هذه هي النسخة الوحيدة الباقية، أما النسخ الأخرى فحرقت بناء على طلبي».

رفعت ايزوبيل رأسها ونظرت إليه.

قال: «ذهبنا إلى فندق بالاس، حيث أمضينا شهر العسل في نفس الغرفة التي نزلتِ فيها في المرة الثانية».

توقف وقد زاد اسوداد عينيه: «فكرت، حسناً لا يهم في ما فكرت. سأخبرك ما أعرف، كان ذلك بالنسبة لي كالنور بعد الظلام. كنت سعيداً جداً أكثر من أي وقت مضى. اخترنا هذا الخاتم معاً فالحرفان المحفوران داخله كانا علامتنا الخاصة».

هز رأسه وشعرت بالحزن والأسى في صوته ثم أضاف: «في اللغة اللاتينية كلمة يوليوس تلفظ بـ«ا. أعجبتنا كثيراً تلك الصدفة، لذلك قررنا أن نحفر داخل الخاتم أول حرف من اسمينا متشابكين، شيئاً خاصاً. وكنت وحدكِ من تناديني يوليوس. وكان ذلك الاسم الذي أفضله، فكل أفراد العائلة كانوا يدعونني اليوت إلا عمي».

ابتسم: «أنتِ بارعة في التمثيل. هل تعرفين؟ يجب أن أعطيك شهادة في ذلك. عندما دخلتُ إلى تلك الغرفة بعد موت زوج أمك وقدّمك السيد شو إلي لم يظهر من جانبك أي ردة فعل».

توقف لحظة ثم أردف: أبدلت اسم عائلتي دي لاهاي باسم ريتشاردسون بعد خروجي من السجن أولاً لأن ذلك أسهل بالنسبة لي مهنياً وثانياً لأهرب من ماضي البائس. عرفت عندما رأيتكِ من جديد وكنت قد

تعمدت رؤيتك، أنك ستتعرفين إليّ فوراً، ولا شك أنك عرفت ذلك.

حاولت ايزوبيل أن تجد صوتها: أقسم لك، أقسم أنني لم أكن أمثّل.

أجابها بسخرية:

- عزيزتي أحب كثيراً تصديقك. لا شك أن تصرفي وسلوكي معك في الأسبوع الماضي كان ترفيهاً لك.. وكدت أبقى على عماي هكذا لولا مجيء هذا الرجل الذي بدّل كل شيء.

أجابته ايزوبيل بصوت متقطع وضعيف: لا أدري ما علاقة هذا الرجل بما تقول؟

أجابها بعنف: من الآن وصاعداً لا مجال للشك في تصرفك مع هذا الرجل فقد سبق أن أقمت علاقات مع عدد كبير من الرجال... فبعد زواجنا اضطررت للابتعاد عنك ثلاثة أسابيع رحت خلالها تعبثين مع الرجال.. نعم هذا ما أخبرتني إياه أختك وهذا الرجل الليلة هو نموذج عنهم.. عرفت ذلك من تلك الصور المثيرة التي أراني إياها. وأخيراً كان هناك ادموند. أخبريني ايزوبيل هل أردت فعلاً ادموند طوال الوقت؟ هل كنتِ تفكرين به عندما كنت بين ذراعي؟

أطلقت صرخة مؤلمة وقالت له بانفعال:

لا أفهم ماذا تقول؟ أنا لا أكاد أتذكر أخاك، لا أتذكر أي شيء عنه.. أما هذا الرجل الذي جاء الليلة فلم يسبق لي أن رأيته وأما هذه الصور فهي ليست لي.. إنها..

قاطعها وهو يضحك بسخرية: أجل قلت ذلك سابقاً. هلا أخبرتني إذن من هي تلك الفتاة المثيرة في هذه الصور؟

أجابته بصوت خافت: «إنها بوبي. لم أردك أن تعرف ذلك لأنني وعدتها. لم يكن باستطاعتها تدبير المال الذي يريده هذا الرجل، أراد أن يبيعها لبعض الجرائد الخلاعية. رجتني أن أؤمن لها هذا المال، لهذا السبب جئت إليك لمساعدة بوبي ثم ذهبت إلى ذلك المصرف في البلدة. وقد وافقوا على إعطائي القرض لكن...».

ـ اوه! أعلم مسبقاً ما ستقولين. ثبتُ بنفسي القرض لكِ، كان عليك أن تعرفي ذلك. وضعت لك ضمانة، فذلك المصرف لا يقوم بعمل خيري أكثر من مصرفي. ربما لبوبي أخطاؤها لكن أؤكد لك أنها ليست مجنونة.. كانت تعرف أين كنتِ وأخبرتني ذلك. لكنني لم أصدقها، لهذا السبب ألوم نفسي.

شعرت ايزوبيل بالصداع يزداد في رأسها وأحست بالغرفة تميد بها.

سألته بصوت فيه رجاء واسترحام: أرجوك أخبرني ماذا حدث! لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك.

أجابها ببرودة: «ليس ذلك صعباً. بعدما أمضينا أسبوعاً في مراكش قرر زوج أمك تعقّب آثارنا ولكنه فشل. في نهاية الأسبوع سافرنا أنا وأنت وكنتِ آنذاك تسافرين بواسطة جواز سفرك القديم ثم عدتِ إلى لندن، وبقيت أنا في مراكش لتنظيم وإجراء بعض المعاملات المتعلقة بالزواج فقد كنتِ قاصرة وكنت في الوقت نفسه مضطراً إلى ملاحقة أعمال عمي. كنت أنتظر إنهاء كل تلك المعاملات في أسبوعين أو ثلاثة لألحق بكِ إلى لندن.. كان عليك خلال ذلك الوقت البقاء في لندن لتجدي منزلاً لنا حتى نسكن فيه لدى عودتي. عدتِ وبقيتِ هناك مع بوبي غصباً عن إرادتي.. ألححتِ: بوبي أختك، بوبي تحبك، بوبي ستحفظ سرنا، ولن تخبر أبداً زوج أمك. هذا ما قلته لي وأقنعتني به. كنت قررت العودة بعد ثلاثة أو أربعة أيام لنذهب معاً لنواجه زوج أمك. عندئذ...».

توقف لحظة: وقع حادث لعمي في السيارة فأرسلت لك فوراً برقية وأعلمتك بالخبر. كان في المستشفى ينازع ولم يكن باستطاعتي أن أتركه وأرحل. طلبتُ منك العودة إلى مراكش فطالما قلتِ لي إنك تحبين عمي وصدقتك. كما تعلمين، لم تعودي قط. لم تجاوبي حتى على البرقية.. اتصلتُ بشقة بوبي فلم يجبني أحد. لم يكن هناك أحد، أو ربما كانت بوبي ولم تجب.. أما أنتِ فكنتِ في الخارج. كانت بوبي تقدم الأعذار عنكِ وتخبرني أنك حاولت الاتصال بي وأرسلتِ لي رسائل وأنك لستِ على ما

يرام. كنت مذعوراً وقلقاً ولكنه من المستحيل علي أن أعود. عرفت أنها تكذب من وراء ظهركِ لتغطي شيئاً ما.. فكان أن مرّ علي أسبوعان ونصف عشت فيهما في الجحيم. توفي عمي.. فبقيت لحضور المأتم، ثم عدت فوراً إلى لندن. ذهبت إلى شقة بوبي فأخبرتني بأمر الحفلات الراقصة وبأمر الرجال الذين تقابلينهم وتعبثين معهم أما أنت فلم أجدك في الشقة في ذلك الوقت، رجعتِ إلى هنا لتلاحقي ادموند. من يعلم؟ في ذاك الوقت قلت لأختك إنها كاذبة وخرجتُ من تلك الشقة وعدتُ إلى هنا. عدت إلى هنا ذلك النهار، يوم الحادث.

فقالت له ايزوبيل بحركة غاضبة: ذلك النهار؟ هنا؟

ـ لا تنظري إلي هكذا! لا تفعلي ذلك! هكذا بدوتِ في ذلك اليوم، عذبة وبريئة ومسرورة بعودتي. وبكيتِ ورحتِ تخبرينني قصصاً وتشكين همك لأنني تأخرت بدون سبب. ولما أخبرتك عن البرقية أنكرت أنك استلمتها وقلت إن بوبي قالت إنني لم أتصل قط لأسأل عنكِ. لا أتذكر التفاصيل، لم آبه لها.. جلّ ما كان يهمني آنذاك أنني معكِ من جديد، مع المرأة التي أحببتها أكثر من حياتي وعندما كنت معكِ صدقتك وفكرت أن كل أخبار بوبي كاذبة. ركعتِ هنا على هذا السرير، ورفعتِ يديكِ وأقسمتِ أنك تحبينني. ومكثنا هنا ثلاثة أسابيع. كنتِ دائماً معي، إلى جانبي، وبين ذراعي..

توقف صوته فأمسكها وقال لها: أعلم أنكِ تتذكرين ذلك. علمتُ ذلك هذه الليلة وأنتِ بين أحضاني.. أستطيع رؤية ذلك في عينيكِ. هل يمكنك أن تكذبي في شيء مثل هذا؟ يا الهي لم أؤمن بأي شيء طوال حياتي. أما بك وبنا فآمنت، وكيف لا أؤمن بك وأنت في غاية البراعة في الكذب.. وهذه الليلة كدت أصدقك أيضاً.

قاطعته ايزوبيل مقتربة منه بوداعة وهي تردد: «بوليوس». كان الضوء في الغرفة يزداد شيئاً فشيئاً حتى كاد يعميها «بوليوس..».

أبعدها عنه بعنف وقال لها: لا، لا تلمسيني! لا أريد أن ألمسكِ بعد

الآن. هذه الليلة كانت المرة الأخيرة. أقدر أن أحصل منكِ على ما أريد. أما ما تريدينه فكل رجل قادر على تقديمه لك..

دفعها فهوت على الوسادة وانحنى فوقها والغضب يملأ وجهه. ثم تابع بهدوء: «اعتقدت أنك حامل. فكرت أنه من غير المعقول ومن المستحيل ألا تحملي لأننا سليمان معافان. كنت متأكداً من ذلك. أحببتك كثيراً وتضاعف حبي لكِ. آنذاك في تلك الليلة تركتكِ بمفردك في المنزل، اضطررت أن أذهب إلى القرية لأجتمع بمحامي عمي. تغيّبت فقط ساعة وعندما رجعت لم تكوني هناك، رحلتِ وتركتِ خاتم الزواج هنا تماماً على الطاولة من دون أي ملاحظة أو أي شيء».

أجابته ايزوبيل من دون تفكير وكأن صوتها آت من وراء ارتداد مظلم في فكرها: لم أرمه، أرجوك يوليوس لم أتركه هنا.

تجاهل كلماتها وتابع: تركتِ الخاتم هنا وخرجتِ من المنزل وهربتِ مع أخي في سيارتي.. هل كنت على علاقة معه؟ لا أدري. أخبرني أنكما حبيبان. لم يخبرني قط بالتفاصيل ولم أسأله بدوري. في مطلق الأحوال كان طوال الوقت ثملاً لا يستطيع أن يتذكر. ولكنك تشاجرت معه، وأصبح ادموند عنيفاً. كنتِ تحبين عنفه. أخبرني أنك كنتِ تفضلينه علي لأن عنفه كان يُشعرك بالابتهاج. هكذا تشاجرتما.. حاولتِ الخروج من السيارة فوقعتِ. عندئذ خاف جداً.. وخبأ السيارة خلف الأشجار وعاد إلى هنا ليخبرني بالحادث.

توقف فجأة: الباقي بسيط جداً. ذهبتُ إلى المحكمة. أسقطت تهمة الاغتصاب عني لكنني حوكمتُ بالتهم الأخرى وحكم علي بالسجن لمدة سنة.

ـ لكن لماذا؟ هذا لا يصدق..

ـ لأنني لم أهتم. لأن ادموند رجاني أن أخرجه من هذه الورطة، لأن أمنا كانت مريضة جداً وكنت أخشى أن تعرف الحقيقة فتموت قهراً.. كانت تعبد ادموند. لأنني وجدت أن من السهل علي الوقوف أمام المحكمة ولأنك

بنوع خاص سهلتِ عليّ الأمور.

توقف ثم أضاف: بعد كل ذلك، أخبرتِ زوج أمك أنني كنت أقود السيارة وأخبرته أيضاً أشياء أخرى صغيرة، مثلاً أنني أجبرتك على إقامة علاقة معي، وضربتكِ ودفعتكِ من السيارة وهي مسرعة. كان لهذا الكلام ردة فعل قوية في قاعة المحاكمة.

ابتسم وتابع: «كانت وثيقة الزواج معي في جيبي آنذاك وكان بوسعي أن أنسف كل المحاكمة بمجرد أن أقدم تلك الورقة الصغيرة للقاضي ولكنني قررت ألا أقدمها. أما أنت فكنت أيضاً تحاولين حماية رأس ادموند، فاقتنعت أنكِ تحبينه ولأنني أعرف ما هو الحب قررت أن أسهّل لك طريقك».

أجابته ايزوبيل بصوت متردد وهي شاحبة الوجه: هذا ليس صحيحاً.. ليس فيه أي شيء من الصحة. لم أكن كذلك. أعرف أنني لم أكن كذلك، نزع الخاتم من اصبعي ورماه. أوجعني كثيراً، أوثق يدي خلف ظهري وأنتزعه.. لم يكن يشبهك... كان أشقر الشعر.. عندما آلمني راح يضحك وأعجبه أن يؤذيني.. ضحك. يا إلهي!

أحنت رأسها فجأة وضغطت بيدها فوق أذنيها لأنها شعرت بالألم يضرب رأسها بقوة.

ـ أستطيع أن أسمع طريقته الغريبة وهو يضحك، كان يكرهني نعم أعتقد أنه كان يكرهني. قال لي إن زوج أمي أرسله، لم أصدقه فزوج أمي لا يفعل ذلك.

ثم توقفت لأن نبضات قلبها وضربات الألم في جبينها تضاعفت ثم تحولت صورة الرجل أمامها إلى سراب.

رفعت يدها والغشاوة في عينيها وقالت: يوليوس.. يوليوس! هل أنت هناك؟ يجب أن تصدقني. ما قلته غير صحيح. لا شك أنهما كذبا.. لم أخبر قط زوج أمي بذلك. يجب أن تكون مخطئاً. أرجوك! يمكنه إخبارك بذلك.

أجابها بصوت حاد: «مات ادموند».

راح نبضها يضرب رأسها ويُصدر صوتاً عنيفاً كصوت الطبل. أنزلت قدميها على الأرض، وحاولت الوقوف وهي تتمايل.

قالت: «ادموند، يجب أن أرى ادموند فهو سيخبرك. يجب أن يخبرك، ليتني أستطيع رؤيته، سيخبرك الحقيقة».

ترنحت إلى الأمام وكادت تهوي فأمسك بها.

ـ لا يمكنكِ رؤية ادموند.

التقت عيناه بعينيها وكانتا تماماً كالعينين اللتين طالما رأتهما في أحلامها، رماديتين باردتين كالجليد.

ـ لماذا؟ لماذا لا؟ لماذا لا أستطيع رؤيته؟

ـ أعتقد أنه يجب أن تعلمي ذلك، ألم يخبرك زوج أمك أو بوبي؟ ألم تشاهدي ذلك في الجرائد؟

ارتجفت شفتاه: ايزوبيل، مات ادموند. مات بسبب تناوله جرعة مفرطة من الهيروين، مات منذ سنتين.

* * *

٩ ـ دعي الماضي يحترق!

أطلقت ايزوبيل صرخة ملؤها الألم والكرب وشعرت بالغرفة ساخنة جداً وبشرتها باردة كالجليد. كان العرق يتصبب من جبينها. نظرت إلى الرجل الواقف أمامها، فظهرت قامته الطويلة أمامها ثم اختفت. هل كان يوليوس؟ وهل يمكن أن تكون الكلمات التي قالها صحيحة؟ لا يمكن أن تكون كذلك؟ لم يكن ذلك ممكناً؟ لم يكن أيّ شيء منها ممكناً. لم تجرِ الأمور هكذا فهي تعلم أنها لم تكن كذلك.

مات؟ سمعت موجة صوتها ترتفع ثم تهبط بجنون، فصرخت بيأس: «لا يمكن أن يكون ميتاً، لا يقدر.. يوليوس مات، وليس ادموند. أنت تكذب عليّ، لا أستطيع تحمّل ذلك. لا يمكن أن يكون ميتاً. يجب أن أراه!».

شاهدت بغموض وجه يوليوس يتقلص وعيناه تشتعلان.. رفع يده بحركة يائسة ثم ابتعد عنها.

أجابها بصوت ضعيف ملؤه الصدمة: إذا كان لا يزال لدي أي أمل فأنت قضيت عليه. أعرف الآن أن ذلك كان صحيحاً.. إن نظرة بسيطة إلى وجهك توضح الأمر بكل جلاء.

توقف قليلاً ثم تابع: عندما أخبرتني في تلك الليلة في شقتي في لندن أنك اعتقدتني ميتاً لم أر أثراً أو إشارة للحزن في وجهكِ الجميل أو أي أسف؛ أو أي شيء. أما الآن عندما علمت بموت ادموند فانظري ردة فعلكِ. لا أريد أن أرى وجهكِ مرة أخرى.

حلّ صمت رهيب طويل في الغرفة لم يقطعه غير صوت أنفاس ايزوبيل المتقطعة. كانت تنظر في الغرفة إلى ظهره وهو يبتعد.. عندئذ أطلقت صرخة خافتة وركضت إلى الخارج. ولكن الرجل الذي خرج لم يدر رأسه ليلقي نظرة عليها.

* * *

ركضت ايزوبيل في الممر، ونزلت السلالم إلى المدخل المرصوف بالرخام. جلّ ما كانت تفكر فيه في تلك اللحظة هو الخروج من هذا المنزل بسرعة والابتعاد عن هذا الرجل.. عندما أقفلت الباب وراءها سمعت ضجة.. ربما أحدهم كان يناديها. لكنها لم تتوقف ولم تتردد بل خرجت من الباب إلى البرد والظلام.

قويت الريح.. ولم تعد تقدر أن ترى الأشجار التي تتمايل تحت نور القمر بوضوح.. كانت تراها ولا تراها. فعيناها عاجزتان عن رؤية ما في الخارج بسبب ذلك الظلام الكامن والرازح في فكرها. أما قلبها فكان يخفق ويخفق على وتيرة واحدة: اذهبي، اذهبي، اذهبي الآن.

نزلت على السلالم الخارجية تكاد تهوي.. ثم تعثرت فانزلقت على الحصى. ركضت نحو السيارة متقطعة الأنفاس وأقفلت الباب وراءها. لم يكن لديها أي مخطط أو أية فكرة ولكن المفاتيح كانت هناك في السيارة. ربما نسيها عندما رأى السيارة الأخرى واقفة هناك. أدارت المفاتيح في حركة عصبية وتلمست بارتباك المكابح وجهاز السرعة ودفعته بقوة باتجاه عكسي.. فعادت السيارة إلى الوراء بضع خطوات. عندئذ وضعت الجهاز على الحرف المخصص للاندفاع والسير وضغطت بقدمها على الدواسة فتحركت السيارة «آه! يا الهي شكراً يا رب». انطلقت بسرعة.. كانت النافذة مفتوحة فشعرت بالهواء البارد يلفح وجهها. ولكن أضواء السيارة كانت منطفئة ولأن الظلام دامس، دامس لم تعد ترى شيئاً. راحت تتلمس بيدها نظام التحويل الكهربائي فأخذت المساحات تعلو وتهبط ثم عادت الأضواء من جديد وظهرت على اللوحة أمامها تدريجياً أضواء الإشارة

والتنبيه ثم الضوء الرئيسي.. ظهرت أمامها فجأة شجرة إلى جهة الشمال فحولت المقود بسرعة نحو اليمين عندئذ رأت البوابة أمامها مفتوحة وعلمت أن الأمور ستسير على ما يرام وستصبح خارجاً في منطقة المستنقعات.

ضغطت على الدواسة فانطلقت السيارة إلى الأمام وهذا ما أشعرها ببهجة مجنونة.. حسناً سارت الأمور بخير. كانت هنا سابقاً.. فهي تعرف الطريق. ما أغباها! كان ذلك سهلاً طوال الوقت وممكناً... إذا كان باستطاعتها أن تقطع المستنقعات فستصل إلى هناك، إلى ذلك المكان الغامض والمظلم في فكرها الذي ظل مقفلاً أمامها وضائعاً لمدة طويلة.. في هذا الاتجاه، أدارت المقود.

أصبحت الطريق ضيقة الآن. عبر المنعطف الحاد رأت أشجاراً أمامها، أغصانها تتمايل فوق الطريق. تحركت قدماها لحظة فوق الدواسة فصدر عن الدواليب أزيز مزعج. شعرت بأنها معلقة بين الفضاء والزمن في الظلام، عندئذ راح الهواء يلفح وجهها، وأخيراً شعرت بفكرها يدور بحرية.. هنا حصل الحادث وكل مراحل الأحداث ونتائجها. الألم كله واضح وحاد ودقيق كزجاج الكريستال: أوقف السيارة! توقف توقف...

لم تدرِ إذا كان هناك من يصرخ أو إذا كان الصوت صادراً فقط عن فكرها، لكنها عرفت أنه صوتها.. نعم هي من كانت تصرخ.. إنما ليس الآن.. بل في الماضي..

«أوقف السيارة.. ليس ذلك صحيحاً، أنا لا أصدقك، هو لا يفعل ذلك ليس مع بوبي ولا مع سواها.. أنت تكذب. أوقف السيارة».

لكن السيارة زادت سرعتها أكثر وأكثر باتجاه ممر الأشجار المظلم. كان هناك أنوار خلفها أضاءت السماء حتى غدا ذلك الليل كالنهار.. وكل الذي أدركته آنذاك أن الألم والصداع كان قوياً جداً وكذلك كان الخوف. حتى أنها لم تعد تهتم بأي شيء، بل أرادت فقط أن تبقى في الظلام. ادموند، أوقف السيارة!... لفظت الكلمات وأمسكت بيديها المقود ورأت آنذاك نوراً وظلاماً وشعرت بهيكل السيارة يرتفع ويهوي.

صرخت: توقف، توقف. وسمعت صوت الاصطدام يرن في أذنيها كالرعد، وأحست أن زجاج الواجهة تحطم إلى مليون نجمة. لمعت الأضواء لحظة ثم انطفأت، فوجدت نفسها مغمورة في هدوء الليل وفي السلام.

لم ترد العودة من ذلك المكان ولكن شخصاً ما فعل ذلك، شخصاً راح يرفعها ويسحبها بسرعة ويأس. راحت تئن، فشكروا الله.

فكرت أنهم قالوا ذلك، هو قال ذلك، ذلك الرجل الذي أخرجها من السيارة. لم يكن هناك أضواء، بل كان كل شيء مظلماً.. ورائحة كريهة كرائحة الحريق تعبق في الجو.

- ايزوبيل، ايزوبيل. حبيبتي، ساعدني يا الله! أرجوكِ، حاولي أن تساعديني. بسرعة. هناك بترول إنه موجود فوق كل الطريق، ايزوبيل، ساعديني، حاولي، اوه! يا إلهي. أرجوكِ جربي.

عندئذ أدارت رأسها على مهل، وفتحت عينيها فرأت وجهه قريباً من وجهها ونظرت في عينيه. وقالت: «يوليوس، يوليوس».

- أجل، أجل، حبيبتي.

رأت شيئاً يلمع خلف علامات اليأس الموجودة في وجهه. تقدم نحوها بقوة ثم رفعها.. فشعرت بجسمها يلتصق بصدره مقابل دقات قلبه. ركض بها آنذاك، ركض بها وهو يحملها بين ذراعيه. ضمها إلى صدره وحملها بحنان وبلطف إلى داخل سيارة أخرى موجودة على جانب الطريق، سيارة بدت كسيارة الجيب واسعة ذات أبواب عريضة من الخلف. تمددت في الخلف ثم دخل وجلس إلى جانبها، وأحاطها بذراعيه ووضع وجهه على وجهها، فشعرت ببشرته مبللة بالدموع.

- حبيبتي، حبيبتي، اعتقدتُ أنك متِّ.

كان صوته خافتاً ومتقطعاً: آه! يا الهي اعتقدت أنك متِّ.. كنتِ تقودين بسرعة هائلة لذا لم يكن باستطاعتي اللحاق بكِ. حبيبتي، حبيبتي. هل أنتِ بخير؟

شعرت عندئذ بيديه تتفحصان جسمها بلطف ورقة، تلمسان وجهها

وشعرها فعرفت أنها بخير، عندئذ رأت من الضروري إخباره وإطلاعه على ذلك الشيء.

- آه! يوليوس.

لفّت وجهه بيديها وانهمرت الدموع من عينيها.

- يوليوس، فقدتُ الولد.

سمعت أنفاسه تختنق في حلقه.. ورأت وجهه القريب منها شاحباً وعيناه مظلمتين كالليل.

- الطفل؟

كان صوته خافتاً جداً ثم شعرت بيديه تضغطان على كتفيها.

- ماذا تقولين؟ لا تحاولي التكلم! أنت تشعرين بصدمة.. لازمي الهدوء الآن! انتظري، دعيني..

- لا، يوليوس. يجب أن أتحدث إليك. أريد أن أخبرك، اوه! أردتك أن تعلم. يوليوس، اسمعني، أرجوك أصغ إلي.

كان صوتها يأتي إليها من البعيد وأحست بالدموع تترقرق في عينيها لأنها عرفت أن ذلك حلم.

- أخبروني أنك مت.. أخبروني عندما عدت إلى المنزل، أكد لي زوج أمي أنك مت... ولم أستطع أن أفهم. قلت له أنت تعني ادموند، لا يوليوس.. فأنا أحب يوليوس. كان ادموند يقود السيارة، هو الذي أجبرني على ترك المنزل وجعلني أنسى خاتم يوليوس، وأدخلني بالقوة إلى السيارة.. أنا أكره ادموند، إنه سيء وبذيء.. ولم أحبه قط.. لم يرد إيقاف السيارة ولم يسمح لي بالخروج. قلت له إنني سأقفز منها فسخر مني وضاعف سرعته. إذن لا يمكن أن يكون يوليوس، لا يمكن..

سحبت نفساً عميقاً، وأحنت رأسها على كتفه.

- لم أصدقه قط. كنت مرتبكة كثيراً، يوليوس ومريضة. أعطوني كل تلك المسكنات لمعالجة الألم، فنوّموني. نمت مدة وحلمت، قال أبي لم تكن غلطتي. حصل لي ذلك بسبب الحادث. لا أقدر أن أقول، هل كنت نائمة أو

صاحية! وبعد ذلك... وجدت أنه سيكون لي طفل كنت سعيدة جداً لأنني لم أصدقهم وعلمت أنك ستأتي يوماً، وسوف أريكَ الطفل و...».

أغمضت عينيها آنذاك وتساقطت الدموع على سترته. «ثم فقدت الطفل، يوليوس، أجروا لي فحوصات عديدة، وبدأت أنزف فقالوا لي، ليس باستطاعتهم إيقافه وعندئذ...». رفعت رأسها ببطء ونظرت إلى عينيه «عندما استيقظت شعرت برأسي بارداً كالجليد. كنت أشعر بالبرد طوال الوقت. كنت أريد فقط أن أنام». توقفت ولمست وجهه بلطف «عندما نمت كان كل شيء على ما يرام. هل ترى؟ رجعت إلي عندئذ وأمسكتني بذراعيك، وأخبرتك كل شيء فقبلتني، أنا أعلم أنك تحبني. اوه! يوليوس». انقطع صوتها، فتمسكت به «اوه! يوليوس! لا تذهب بعيداً هذه المرة. أرجوك، لا تفعل، لا أستطيع أن أتحمل ذلك إذا رحلت».

أمسك قبضتها بيديه وقال لها بصوت متقطع: لن أذهب بعيداً. لن أذهب بعيداً أبداً. أقسم بذلك.

رفعت ايزوبيل رأسها ونظرت إلى وجهه. فكرت «يبدو حقيقياً، اوه! إنه وحشي، لماذا يبدو دائماً حقيقياً كثيراً؟» فجأة التهبت الطريق خلفها... كان الانفجار مخيفاً وهائلاً كصوت الرعد في أذنيها.

صرخت عالياً وضغطت بيديها على رأسها. بدا الليل مشتعلاً بالإشعاعات. أصفر وأزرق، أخضر وأبيض. نظرت إلى وجه يوليوس فإذا هو متجهم أمام ألسنة النار، وعندما اختفى صدى الانفجار، عرفت أخيراً أن ما يحصل الآن واقع.. لا أحلام، لا أحلام. أطلقت صرخة فرح ورأت السؤال الجواب في عينيه. السيارة!... سحبها يوليوس إلى قربه وابتسم:

ـ دعيها تحترق يا حبيبتي، دعيها تحترق.

* * *

تمددت ايزوبيل على الوسادة. كانت الغرفة دافئة، والنار تشتعل في المدفأة خارج النوافذ، كان الضوء شاحباً. في لحظة سيصعد السلالم من جديد ويكون قربها. أغمضت عينيها لحظة بسعادة ثم فتحتهما، وأجالت

نظرها في الغرفة.

كان ذلك غريباً جداً. بعد كل تلك السنوات من الجهاد ها هي تستعيد الذكريات بسهولة وباندفاع كأنها حدثت أمس وليس منذ خمس سنوات. هذه الغرفة، لا عجب أن تتعرف إليها... كان الأمر مروعاً جداً في لندن، تذكرت ما حدث معها هناك.. في ذاك الوقت بدت بوبي لطيفة وعطوفة، فعندما أخبرتها ايزوبيل أنها ويوليوس قد تزوجا غضبت أولاً ثم تناست ذلك.

ـ تزوجتما؟ هو تزوج بك؟

ارتفعت التجاعيد في جبينها المتجهم وبدت تقاسيم شفتيها الملونتين قاسية، أما ايزوبيل فكانت تضحك بسعادة.

ـ هل هذا غريب بوبي؟ قلت لك إننا متحابان.

ـ حسناً حبيبتي لا بأس بذلك، لكن الزواج؟ لم أفكر قط أن يوليوس هو من ذلك النوع من الرجال...

قطعت كلامها وأردفت: «أنا مسرورة لك وأهنئك. حسناً، من كان يعتقد أن هذا سيحصل؟ تصرفتما بسرعة أليس كذلك؟».

في كل يوم، كانت بوبي تشجعها فتخرج من الشقة وتذهب لتفتش عن منزل لسكنهما. وعندما كانت تعود كانت تقفل الباب وراءها وتنظر إلى بوبي وتسألها بصمت. وكان جوابها هو نفسه: لا شيء، حبيبتي، أنا آسفة لا تحزني، كل الرجال هم هكذا.. يقولون إنهم سيتصلون ثم يحصل شيء ما، فينسون كل شيء عن الموضوع. لا تقلقي. أخبرتني أنه يحبك.

وعندما تصل إلى هذه العبارة كان صوتها يتضاءل تدريجياً ثم تبتسم وتقول: جربي الاتصال به ثانية هذا المساء. لماذا لا تفعلين ذلك؟ فالرقم موجود فوق الوسادة.

الآن تعجبت ايزوبيل من بساطتها تلك ومن غبائها! لكن لم يخطر ببالها قط أن بوبي التي تحب، بوبي التي تظاهرت بالقلق عليها وبالاندفاع لمساعدتها، بوبي التي كانت ترسل لها رسائلها إلى يوليوس والتي كانت

تنتظر مخابرته، كانت بالحقيقة تكذب عليها.

في نهاية الأسبوع وبعد مخابرات عديدة من دون نتيجة. أرسلت برقية. ماذا حصل لها؟ هل اتصلت بوبي فيما بعد وألغتها؟ نعم لا بد أنها ألغتها.

أخيراً، وبعدما تملكها اليأس جاءت بوبي إليها وعلامات العطف والأسف على وجهها.

- والآن ايزوبيل لا تحزني.. قمت بأمر ما قد يزعجك لكنه لمصلحتك. أخبرت ادموند، لكن لا تغضبي. لا أدري لماذا تكرهينه بشدة فهو بالنهاية شقيق زوجك، وقد أحبك دائماً. وكم كان مسروراً بخبر زواجكما.. وهو يريد مساعدتك، وقد تقدم الآن باقتراح جيد. قال لماذا لا تذهبين وتمكثين في منزل عم يوليوس بانتظار عودته وقال إن هذا ما كان سيطلبه يوليوس. لا يمكنكِ أن تظلي محصورة معي في هذه الشقة الصغيرة وأنتِ عصبية كالهرة. في كل الأحوال، أنتِ تعرفين المنزل... ذهبتِ إلى هناك مرات عديدة مع يوليوس. أنتِ أخبرتني ذلك. سوف تكون مدبرة المنزل مسرورة جداً بحضورك، لن يقول أحد أي كلمة لوالدي قبل عودة يوليوس. والآن ايزوبيل لا تكوني غبية فهذا الحل هو أفضل حل لك.. بصراحة تعرفين أني أحبك ولكنك تحرجينني قليلاً. كما أنك لستِ على ما يرام، أنتِ شاحبة لا تتناولين الطعام... سيكون من الأفضل لكِ أن تذهبي إلى ذلك المنزل. لا شك أنك تشعرين بنوع من الضغط لأنك تحديتِ والدي عندما قمت بهذا العمل الذي ما زلت تصرين على إبقائه سراً. والآن اذهبي، قولي أجل... سيكون ادموند لطيفاً وصادقاً. لا يمكن أن نهينه.

في الأيام الأولى على عودتها شعرت ايزوبيل ببعض التحسن لعودتها إلى هذا المنزل حيث كان يوليوس يعيش في غياب عمه، حيث طلب منها أن تتزوج به وحيث هي موضع اهتمام من قبل مدبرة المنزل السيدة ديرنغ، تعيش مع أغراض يوليوس وكتبه وكل ما يذكرها به. كل ذلك ساعدها على تقبل الوضع وعلى تهدئة أعصابها، لكنها ظلت تشعر بالقلق والاضطراب لأنها تعرف أن والدها يبعد عنها اثني عشر ميلاً فقط، لكنه ما دام يجهل أين

هي ولا يعرف أي شيء عن مغامرتها مع يوليوس، فلا داعي للخوف والاضطراب، فهو كما علمت بخير وعافية وهي تنتظر عودة يوليوس ليواجهاه معاً ويضعا حداً لهذه المشكلة.

تنهدت ايزوبيل ووقفت. ما أشد ما كانت غبية! لكنها آنذاك كانت صغيرة.. كانت في ربيعها التاسع عشر، وقد تركت لتوها المدرسة وكانت تخاف كثيراً من زوج أمها ومن غضبه المرعب، وهذا ما دفعها للهرب لتتزوج سراً.

في بادىء الأمر، قدم ادموند لها يد المساعدة ولكنها لم تحبه ولم تثق به. فمنذ وفاة والدهما، عاش ادموند مع أمه العاجزة في منزل صغير على بعد ثلاثة أميال من هنا. وطالما اعتبرته ايزوبيل «الولد الأم» لأنه كان يعتني بأمه. كان ولداً مدللاً رديء الأخلاق يغار كثيراً من ذكاء يوليوس وبخاصة من قربه من عمه. لكن في هذه المرة غيرت وجهة نظرها. كان ادموند يتصل بها كل يوم ويأتي لزيارتها من دون أن تتضايق من وجوده ومن مازحاته، بل كان يرفه عنها ويطلب إليها أن تظل في المنزل لئلا يراها أحد. وكان يرسل كل يوم رسائلها ليوليوس التي لم يستلم أي رسالة منها. هل كان ادموند يقرأها؟ تعجبت الآن واحمرت وجنتاها خجلاً. هل كان يقرأ تلك العواطف المتدفقة التي كانت تبثها ليوليوس وترجوه أن يعود إليها، أو أن يتصل بها وتخبره مرات عديدة كم تحبه؟

في الأسبوع الثاني تغير تصرفه، فراح يقوم بحركات ماكرة خبيثة لم تستطع ايزوبيل تحملها. بالطبع كانت الأمور لا تزال ضمن الإطار الصحيح لكنها بدت غريبة ومزعجة. سألها مثلاً: هل حقاً تزوجتما أنت ويوليوس، أم لعلك تدعين ذلك لغسل ماء الوجه؟

نظرت إليه ايزوبيل وهي متعجبة فاعتذر منها.

- آسف، آسف.

أرجعَ شعره الأشقر إلى الوراء ونظر إليها ببراءة بعينيه الزرقاوين وقال:

ـ إنه تماماً . . .

ثم توقف .

ـ تماماً! ماذا؟

ـ تماماً . . حسناً، لأكون صادقاً معكِ . أردت أن أقول إن يوليوس ليس ذلك الشاب الذي يرغب في الزواج . أنت تعلمين أنه شاب طموح جداً . اعتقدنا أنه لن يتزوج قبل الأربعين . وظننا أنه سيتزوج عندئذ ابنة قاض أو فتاة قريبة من مهنته، وليس فتاة . . .

سكت كأنه قال ما يكفي فامتقع وجه ايزوبيل وشعرت بالانقباض والأسى، ثم تابع : حسناً يجب أن تعلمي أنه يتلاعب بالنساء ويغويهن، فهو أنيق وجذاب . لا أحد ينظر إلي عندما يكون يوليوس حاضراً .

ضحك قليلاً وظهرت على وجهه علامات القلق . آه! كم كان بارعاً بالتمثيل .

ـ ايزوبيل . ما يقلقني هو أنني لا أريد أن أجرح شعورك . لكن ذلك يشغل فكري . . . هل تعلمين شيئاً عنه وعن بوبي؟ فاجأهما معاً .

أجابته شاحبة : «أنا آسفة» فصمت وبدا الارتباك على ادموند الذي حاول تغيير الموضوع :

ـ آه! حسناً ربما لم يكن هناك أي شيء بالفعل، وأنت تعلمين . ربما كان ذلك وضعاً طارئاً ووقتياً . وبعد ذلك قابلكِ . . . حسناً بوبي فتاة جميلة جداً، أليس كذلك؟ لكن هناك قضية تقلق فكري .

ـ ماذا يقلقك؟

ـ حسناً أنا أعلم أنك تحبينها كثيراً ولكنني لا أثق كثيراً بشقيقتك . أعني بخصوص الطريقة التي أبعدتك فيها عن شقتها، وأرسلتك إلى هنا .

ـ اعتقدت أنها فكرتك .

ـ فكرتي؟ اوه . لا . ما الذي يجعلك تفكرين هكذا؟ بوبي اقترحت ذلك .

ثم تردد : والآن اليوت اختفى عن وجه الأرض . لا يمكن أن يكون في

لندن . هل يمكنه؟ ربما ليرى بوبي، ليخبرها فقط أن كل شيء انتهى بينهما . أنا لا أعني أي شيء آخر . اوه! ايزوبيل . لا تبكي . لم أرد أن أزعجك .

تقدم نحوها ووضع يده حولها . كانت مضطربة كثيراً فلم تنتبه في البداية كم كان قريباً ثم أحاطها بذراعيه وقرّب وجهه من وجهها فقفزت . عندئذ ضحك ادموند وذهب .

عندما رحل، كان وجهها شاحباً ويداها ترتجفان . . جلست ايزوبيل ساعات طويلة أمام الهاتف . راحت أولاً تطلب الرقم الذي كتبته لها بوبي فوجدت أن فيه رقماً خطأ . كان قلبها ينبض بسرعة من القلق وهي تطلب الرقم مرة أخرى . نعم هذا هو . . الرقم الصحيح، رقم شقة عم يوليوس . . عندما لم تتلق جواباً حاولت الاتصال بالفندق ثم بالشقة بدون جدوى فتملكها اليأس وتمزقت أعصابها من محاولاتها المتكررة التي باءت بالفشل من دون أي نتيجة . أخيراً اتصلت بالقنصلية وبعدما تحول الخط عبر عدة سكرتيرات وصل أخيراً إلى أحد الموظفين الذي أفادها أن يوليوس حجز تذكرة إلى لندن ثم قال لها : سافر السيد دي لاهاي هذا الصباح . أجل إلى لندن . شعرت ايزوبيل أنها تطير في الهواء فاتصلت ببوبي ونسيت كل حركات ادموند المزعجة ولكن بوبي قالت لها إنه لم يصل حتى الآن .

ـ أخبريه أن يأتي فوراً إلى هنا . أخبريه بوبي، أخبريه أنني أحبه، هل ستخبرينه؟

بعد ذلك قامت بنزهة في الحديقة لتتنشق هواء الشتاء النقي . . عندما عادت إلى المنزل صعدت إلى غرفتها، فوجدت ادموند ينتظرها هناك .

توقفت على المدخل ونظرت إليه بتعجب، كان ادموند جالساً على السرير وفي يديه ثوب نومها الذي وضعته تحت الوسادة هذا الصباح مع غلالة شفافة اشتراها لها يوليوس . رفع رأسه بلا مبالاة وكأن له كل الحق أن يكون هناك وعندما نظرت إليه ترك ثوب النوم ببطء ووضع رأسه فوق الغلالة . قرّبها من شفتيه وقال لها : «أشم فيها رائحتك» .

امتقع لون ايزوبيل فنظرت إليه بغضب أما هو فراح يضحك بخبث

حتى شعرت ايزوبيل بأعصاب معدتها تتمزق من الغيظ.

- اخرج من هنا!

تقدمت خطوة منه وهي تعتقد أنه سيواصل الضحك ويأخذ كل شيء بشكل هزلي لكنه لم يفعل. بل بدا وجهه رزيناً، فوضع الثوب على السرير وقال لها ببطء: «أنا أحلم بك».

ظنت أولاً أنه ثمل ولكنه أضاف: «أحلم بك ليل نهار». دنا خطوة إلى الأمام فتراجعت ايزوبيل بشكل غريزي إلى الوراء. «منذ سنين وأنا أفكر بك وأحلم بك، كما كان يحلم أبي بأمك. وأخيراً ماذا حصل؟ اليوت وصل إليكِ قبلي، وهذا ما يفعله دائماً».

نظرت إليه وقد انعقد لسانها، أحست أولاً بالخوف وعندما لم يتحرك شعرت نحوه بالشفقة... غضّت النظر عن كلامه وقالت له: ادموند، سيعود يوليوس اليوم. سافر اليوم بالطائرة من مراكش. سوف يكون هنا قريباً. ألا تفكر أنه يجب عليك أن ترحل؟.. لا يمكن أن تبقى هنا.. يجب ألا تفكر هكذا وتتفوه بهذه الكلمات.

تكلمت إليه بلطف كأنها تتكلم إلى طفل.. فانفجر الشرر من هاتين العينين الزرقاوين.

- لا تعظيني! لطالما فعلتِ ذلك منذ أن كنتِ طفلة. أنتِ مخادعة، تتظاهرين بالبراءة تماماً كوالدتك... كانت تلاحق والدنا بنفس الطريقة التي لاحقت فيها يوليوس، وادعت دائماً أنها لم تفعل ذلك وأنها طبعاً فوق الشبهات. وأنت مثلها مدللة. هل تتذكرين الألعاب التي كنا نقوم بها ونحن صغار فوق العُلية حيث كنا نختبىء في الظلام. قبلتك ذات مرة، فادعيت أنك تصرخين. لكنك لم تصرخي حقاً. كان علي أن أقبلك أكثر، ولا زلت أريد ذلك.

أشاحت ايزوبيل بوجهها عنه عندما مر بها وهو خارج عبر الباب. كان على وشك ملامستها والاندفاع نحوها أو الاصطدام بها، لكنه لم يفعل. لكنه توقف فقط ونظر إليها. وعندما نظرت إليه وجدت وجهه شاحباً، ذابلاً

وبائساً. فكرت أنها لم ترَ قط شخصاً يكره نفسه كما بدا ادموند. إنه أشبه بحيوان مريض.. ثم تطاير الشرر من عينيه فقال لها: «هل ستخبرينه؟ هل ستخبرين يوليوس العزيز؟».

نظرت إليه ولكنها لم تستطع أن تعرف من خلال نبرة صوته ما إذا كان فعلاً يريد منها أن تخبر يوليوس أو أنه خائف منه.. هزت رأسها ببطء وأجابته وهي تفكر أن ذلك سيجرح شعور يوليوس كثيراً: لا، لن أخبره، لماذا أفعل ذلك؟

لا بد أنها أخطأت في جوابها، إذ رأت شفتيه مشدودتين وعينيه زائغتين كأنها شتمته. عندئذ خرج من الغرفة.

جلست ولمست ثوب النوم الحريري المعلق ثم أخفت وجهها في الوسادة. لقد أساءت تقدير ادموند، وأساءت أيضاً تقدير مشاعره القوية الشاذة. حتى ذلك النهار لم تتوصل أن تفهم ما إذا كان ادموند يريد أن يؤذيها أو أن يؤذي أخاه؟ يوليوس الأخ الذي كان يحبه ويكرهه في نفس الوقت، يوليوس الذي كان يغار منه منذ الطفولة. لا بد أنه خرج من غرفتها وذهب إلى منزل زوج أمها ليخبره بوجودها. هذا ما اعتقده يوليوس وتظن أنه أصاب في تفكيره.

ثم وصل يوليوس الذي ما إن رأته حتى نسيت كل الأكاذيب التي قُصّت عنهما.

وعندما خرج يوليوس من المنزل، عاد ادموند ولكنها حتى الآن لا تريد أن تتذكر ذلك المشهد الذي حصل. آنذاك أرسله زوج أمها وفرح ادموند بالمهمة. أوثق يديها ونزع الخاتم من إصبعها وسحبها بالقوة إلى السيارة وكان طوال الوقت يتكلم بكلمات بذيئة مريعة وأشياء كاذبة.

أغمضت عينيها وفكرت في ادموند وفي زوج أمها وفي بوبي. ثلاثة أشخاص أنانيون، لا يتحمل أي منهم أن يقاوم أحد رغبته.

كان ذلك مخططاً مجنوناً، إرسال ادموند ليخطفها ويعيدها بالقوة إلى زوج أمها. لولا الحادث لما نجح ذلك ولكن زوج أمها لم يأخذ ذلك بعين

الاعتبار. عرفت أنه خلال غضبه وثورته لم يفكر بسوى شيء واحد، إعادة ايزوبيل إلى تحت سقف منزله حيث باستطاعته مقاصصتها، حيث بإمكانه السيطرة عليها وكسر شوكتها كما فعل مع أمها. كان لديه ثقة عمياء بقوة إرادته، أدركت ذلك الآن. شعرت برعشة من الخوف عندما تذكرته وتذكرت كيف ضاعت تلك السنين بسببه وكيف كان يكذب عليها، وكيف حطم بتصرفاته المريعة حياة أشخاص عديدين: والدتها، عائلة دي لاهاي، وحياتها هي بالذات. وقد مات كما عاش وهو واثق من نفسه أنه دائماً على حق، لا يتأثر وقلبه مملوء بالحقد.

أحست الآن بالشفقة على ادوارد سانت ايوين وليس بالغضب. لقد خسر في النهاية بعد كل ما فعل. لكنه أخطأ في حساباته، وأساء تقدير يوليوس الرجل، صاحب الإرادة القوية كإرادته.

* * *

١٠ ـ عيناك!

في الطابق السفلي، أُغلق الباب بقوة ثم سمعت وقع أقدام على السلالم وأصوات، وتوترت ايزوبيل ووقفت. عرفت من جاء.. وما هي إلا لحظات حتى انفتح الباب ودخل منه يوليوس وبوبي.

ساد الصمت للحظة، انتشر خلاله عطر بوبي. نظرت إلى ايزوبيل لحظة ثم هزت كتفيها باستهجان: قال لي يوليوس إنك لا تريدين رؤيتي. وقد وعدكِ ألا يتكرر هذا النوع من الأحداث أبداً.. بهذه المقدمة استقبلني ثم طلب مني الخروج.

كانت تتكلم وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة: فأجبته أنك لست على شفير الموت ولست جبانة. وها أنا هنا، لم أُرد أن أذهب دون أن أراك من باب الفضول.

نظر يوليوس إلى ايزوبيل نظرة سريعة متسائلة فأومأت برأسها ببطء:

ـ حسناً يوليوس، لا بأس. بالحقيقة أنا بخير.

ارتدت بوبي إلى يوليوس: «لن أمكث طويلاً وأفضّل أن أبقى بمفردي مع ايزوبيل إذا لم تمانع».

لم ينظر يوليوس إليها بل تقدم وجلس على كرسي في الغرفة وأجابها:

ـ أعتقد أن لدي مانعاً.. تسببت لنا بكثير من المشاكل سابقاً، لذا لا أنوي السماح لك بالتسبب بالمزيد.

ضغطت بوبي على شفتيها: «أنت تحميها! يجب أن تشعري حقاً بالإطراء ايزوبيل».

ترددت أولاً، لكن يوليوس وضع قدميه فوق بعضهما بعضاً واتكأ إلى ظهر الكرسي. كان واضحاً أنه لن يتحرك فتجهم وجه بوبي ولكنها سحبت كرسياً وجلست ثم فتحت حقيبتها وأخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة سحبت منها نفساً عميقاً... عندئذ نظرت ايزوبيل إليها بإمعان فتورد وجه بوبي تحت التبرج الكثيف وقالت لإيزوبيل: لا تنظري إلي هكذا بحق الله! إذا كنتِ ستؤنبينني وتعظينني أفضّل الرحيل.

أجابتها ايزوبيل بلطف: لم أقل شيئاً حتى الآن.

فضحكت بوبي: حسناً، لكنني أعرف بماذا تفكرين وقد عرفت ذلك دائماً، فإحدى نقاط ضعفك ايزوبيل هي صدقك وشفافيتك..

ثم نظرت بطرف عينها إلى يوليوس: والرجال يجدون هذا النوع من التنبؤ مضجراً قليلاً.

ربما ظنت أنها بهذه الملاحظة ستجعل يوليوس ينسحب، لكنها فشلت إذ رفع حاجبيه وضغط على طرف شفتيه وتظاهر بأن تلك الملاحظة السمجة بلا معنى.. أطفأت بوبي عقب سيجارتها بعصبية.

ـ حسناً! لا أدري لماذا جئتُ إلى هنا بالحقيقة. أردت التأكد أنك بخير، وأردت أيضاً أن أشكرك أنت ويوليوس لأنكما خلصتماني من ليام توماس.

قاطعتها ايزوبيل: «ولأنك أيضاً أردتِ التأكد إذا كنا أخذنا كل الصور، أعرف أيضاً ما يجول بخاطرك. حسناً، لا تقلقي لقد أخذنا كل الصور كما أخبرتكِ من دون شك، وقد أحرقها كلها يوليوس».

رفعت بوبي حاجبيها قليلاً ثم ضحكت.

ـ حسناً. هذا مريح جداً.

وقفت بسرعة ثم أردفت: أما أنت، فتبدين على ما يرام.

أومأت ايزوبيل برأسها، فارتدت بوبي نحو الباب. كانت ترتدي ثوباً قرمزياً ضيقاً على قياس جسمها. ظهرت كما كانت تبدو دائماً، متكلفة، مبهرجة وجميلة. امرأة يمكنها الحصول على ما تريد.

ـ بوبي؟

ـ أجل؟

أدارت بوبي وجهها وهي تنظر إلى وجه ايزوبيل.

ـ لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا كذبتِ؟

ساد صمت وجيز، كانت خلاله المرأتان تتبادلان النظرات. لبرهة ظنت ايزوبيل أن بوبي لن تجيبها وأنها ستكتفي بالضحك والخروج من الباب، ولكنها تفاجأت عندما توقفت ابنة زوج أمها وألقت نظرة على يوليوس ثم على ايزوبيل وبدت كأنها تفكر ثم ابتسمت وقالت بلطف وواقعية: بالحقيقة لا أقدر أن أتحملك ايزوبيل، لم أقدر قط. أدرك الجميع ذلك ما عداكِ. نزلت علي من السماء أنت وأمك وأردت أن تكوني صديقتي وحاولت كسب ثقتي، وحاولت كسب عطفي كما فعلت مع والدي. كان عجوزاً مجنوناً. أعتقد أن أمك كانت تضجر من رفقته ولكنك لم تضجري قط منه. كنت دائماً عذبة، مهذبة، عطوفة ومطيعة... كنت الابنة الصغيرة المثالية على عكسي.. حسناً فأنا مثله، وكان يكره ذلك. ما كان يتقبل قط أن يعارضه أحد، وأنت لم تعارضي إرادته قط حتى مشكلة يوليوس.

عندما ذكرت ذلك أدارت وجهها نحو يوليوس. في هذا الوقت كانت ايزوبيل تنظر إليه فرأت وجهه يتجهم. حاول الوقوف عن مقعده ما إن تفوهت بوبي بهذه الكلمات ولكنه تردد عاد وجلس على كرسيه.. يبدو أن سلوكه أغضب بوبي وزاد من حنقها فضاقت عيناها وأدارت وجهها من جديد نحو ايزوبيل.

ـ حسناً، زواجك فاجأني وجعلني أدرك أنني أسأت تقديرك وأنك تتمتعين بإرادتك الخاصة وشخصيتك الخاصة، وأنك لم تكوني تلك الفأرة الصغيرة الغبية كما ظننت. لذا انزعجت، انزعجت كثيراً خاصة عندما تورطت مع يوليوس الذي رغم كل محاولاتي ظل صامداً وهو الرجل الوحيد الذي استطاع أن يقف في وجه إغرائي ويتخلى عني بشجاعة، لا سيما عندما أخبرني بوضوح في مناسبات عديدة أنه يحب نوعاً آخر مختلفاً من النساء.

قاطعها يوليوس بحدة: أوضحتُ لك بصراحة وفي مناسبات عديدة

أنني لست مهتماً بكِ. فلماذا تحاولين الكذب؟ لن تصدقك ايزوبيل.

- ربما.. لو كنت مكانك لما كنت شديد الثقة بنفسي. فإيزوبيل تفرط عندما تثق بالناس وهي تنخدع في الوقت ذاته بسرعة.

ثم نظرت إليها وتابعت: عندما رجعت إلى لندن، يا لله! كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة إلي.. كان ذلك كمن يأخذ الحلوى من يد طفل. كانت لعبة بسيطة في البداية وفكرت أن أضع العصا في دواليبك. كنتِ سعيدة جداً وأنيقة وكثيرة الثقة وغبية جداً.

توقفت بسخرية: سأضع رسائلك بالبريد ايزوبيل، هذا هو الرقم الذي عليك طلبه. لماذا لا تذهبين إلى ديفون؟ لقد قضت وقتها مع عدد من الرجال..

راحت تحاول تغيير وتقليد نبرات صوتها المبتكرة ثم أطلقت ضحكة صفراء وتابعت: طبعاً، لم أرد المضي في لعبتي كثيراً لأنني أدركت أن يوليوس سيعود، وهو لن يصدق بسرعة ما قد أدعيه ولكنه غيور جداً، أليس كذلك؟ اوه! خرجَ من شقتي وقال لي إنني كاذبة، ثم علمت أنه سينسى كل شيء قلته ما إن يراك. تمنيت لو صدقني مرة ولو أنه شك فيك، لكن لم يحصل شيء من ذلك. أردت فقط إبعاد السعادة عنكما، هذا ما كنت أريده. ربما أوشك ذلك أن يحدث لو لم يحصل ذلك لادموند، لو لم يكن يوليوس رجلاً سادياً يجد لذة في تعذيب غيره، ألم تقف بوجه أخيك وتحول دون شعوره؟ بصراحة ما زلتُ لا أصدق حتى الآن لماذا فعلت ذلك يوليوس؟ حصل كل شيء ببساطة وبدقة. هل تعلمين ايزوبيل؟ كنت أردد كل ليلة صلاة صغيرة: أرجوك يا الله لا تعد إلى ايزوبيل ذاكرتها... لا تعدها..

وقف يوليوس فجأة ووجهه متجهم من الغضب وقال لها: حسناً! هذا يكفي.

انفرجت عينا بوبي فأجابته: أحقاً ذلك؟ يوليوس؟ لماذا؟ هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ الحقيقة التي تريد إخفاءها بحدة. لماذا لا تدع

ايزوبيل تعرفها؟ فهي مخدوعة منذ مدة طويلة. اعتقدنا أنا ووالدي أن ذلك لمصلحتها وخيرها وفي الواقع ما زلت مقتنعة أننا كنا على حق، وقد كذبت عليها بخصوصك واقتنعت بذلك. كان بالإمكان أن تظل معتقدة أنك ميت وأنك تكرهها. كان بالإمكان أن أظل بحالة أفضل لو عاشت ايزوبيل مع رجل بسيط مضجر وأصبح لديها عائلة وولد صغير مضجر و... والآن يوليوس، كان بإمكانك أخيراً أن تتخلص من هاجسك اللعين وتجد فتاة أخرى، امرأة من مقامك تناسبك.

قفز يوليوس نحوها وأمسك يدها بعنف ثم عاد فتركها فوراً كأنه يشعر بالاشمئزاز من لمسها. ثم راح ينظر إليها برعب وكانت ايزوبيل أيضاً تنظر إلى شقيقتها برعب.

كان صوت بوبي يتغير وهي تتكلم. بدت مبتهجة بمكرها وخبثها المتعمد وظهرت تقاسيم وجهها قاسية وبدت قبيحة ومُسنّة قبل أوانها و... بدت كوالدها. قبل أن يتحرك يوليوس مرة أخرى رفعت ايزوبيل يدها ببطء وقالت بصوت ضعيف: بوبي، بوبي، لا تتفوهي بهذه الأشياء فلا أظنك تعنينها.. أنا... فقدت طفلي، طفل يوليوس.. وهذا ما جعلني أفقد ذاكرتي، لا يمكن أن تتمني ذلك، ولا يمكن أن أتصورك مسرورة بسبب ذلك.

أجابتها بوبي بحدة:

- هذا هو السبب! مئات النساء يفقدن أطفالهن. اسمعي ايزوبيل أنا أكرهك.. أكرهك ولا أرغب في رؤيتك بعد الآن.

ثم مشت نحو الباب فتبعها يوليوس من دون أن يتفوه بكلمة.

- حسناً، حسناً، أنا خارجة.

تقدمت بوبي نحو الباب فظهر وجهها شاحباً تحت تبرجها. كانت عيناها تلمعان شرراً. لدى وصولها إلى الباب أدارت وجهها نحو ايزوبيل.

- باستطاعتي أن أتقبل كل ذلك، أستطيع أن أرضى بوجودك هنا مع كل هذا المال، وأرضى أن يلعب يوليوس دور الزوج الغيور ودور الحامي..

ولكن لن أستطيع أبداً أن أتحمل فكرة وجودكِ مع ولد خاصة ولده، لا أستطيع أبداً. لذلك أستودعكِ ايزوبيل ولا تحاولي دعوتي إلى حضور عمادة ابنكِ. هل سترسلين لي دعوة؟

خرجت... كان كلاهما يسمعان وقع كعبي حذائها العالي يضربان الأرض بغضب.

أقفل يوليوس الباب. مشى عبر الغرفة وغمر ايزوبيل بذراعيه ثم رفع وجهها إليه بلطف: حبيبتي هل أنت بخير؟

كان ينظر بقلق إلى عينيها.

ـ كنت على وشك منعها عن مواصلة الكلام، ثم فكرت ألا أفعل ذلك. ووجدت من الأفضل أن تسمعيها بنفسك.

ـ فكرت في ذلك أيضاً.

نظرت إليه بعمق ثم تجهم وجهها: «إنها تكرهني يوليوس. تكرّهني كثيراً.. لماذا؟ لماذا؟».

ـ حبيبتي، انظري إلى المرآة تخبركِ السبب. فمع كل المال، وكل البراعة، وكل المساحيق في العالم لا يمكن لبوبي أن تبدو مثلك وهي تعرف ذلك. من هنا، من هذه الحقيقة كانت البداية، أعتقد... وبعد ذلك.

وضع شفتيه على جبينها: أما الباقي فواضح جداً. أعتقد.

ثم رفع وجهها نحوه ونظر في عينيها الجميلتين.

ـ كنتِ تحبينها كثيراً أليس كذلك؟ بالنسبة لامرأة مثل بوبي هذا شيء لا يغتفر فهي تكره الحب لأنها تكره نفسها وهي تعتقد أنها لا تستحق ذلك. جعلتني أشعر بالغضب الشديد وبالازدراء نحوها. وأخيراً أشعر بالأسف عليها لأن نهايتها ستكون كنهاية والدها، هل تدركين ذلك؟

أومأت ايزوبيل برأسها، فقال لها: ألا تريدين البكاء؟ يمكنك البكاء إذا أردت على كتفي. وعدتك مرة بذلك منذ وقت بعيد.

تنهدت ايزوبيل وألقت رأسها على صدره... إنها تحبه بسبب لطفه وعطفه، لكنها أدركت أنها لا تريد أن تبكي بعد الآن. لقد ذرفت آخر دموع

لها على بوبي ووالدها.

في النهار التالي، شعرت ببعض التحسن وأحست أنها أفضل وأن باستطاعتها النزول إلى الطابق السفلي. فكان أن ألبسها يوليوس معطف الفراء الذي اشتراه لها ولكنه لم يفعل ذلك حتى تأكد أنها لن تشعر بالوهن وأنها دافئة. وافق أخيراً على القيام معها بنزهة صغيرة في الحديقة فابتسمت ايزوبيل بسبب حرصه على سلامتها ووضعت يدها بيده.

كان النهار دافئاً تحت أشعة شمس الربيع، سارا على مهل في ممرات الأعشاب التي تمتد أمام المنزل نزولاً إلى ممر ممتد بمحاذاة جدول صغير يسير حول مياه البحيرة الهادئة.

عبرا ملعب التنس نزولاً حتى المنزل الصيفي الصغير. وفيما هما سائران في هذه الأماكن المألوفة، فكرت ايزوبيل بالأيام السابقة التي كانت هنا، تلك الأيام السحرية التي أمضياها معاً قبل ذهابهما للزواج. في تلك المرحلة عرفت أن يوليوس يفكر بها أيضاً. وفي أحد الأيام توجها إلى البحيرة وهناك جذبها إليه وشبك يدها بيده. وفي المنزل الصيفي الصغير، المحمي من الهواء جلسا فوضع يده حولها. جلسا هكذا صامتين لبعض الوقت. كان الآن يفكر بصمت.. فرأت ايزوبيل عينيه تعبران مياه البحيرة لتصلا صعوداً إلى ملعب التنس، ثم قال أخيراً: ذكريات عديدة تركناها هنا.. كنا نلعب التنس وقت الغروب.. عندما تصبح أشعة الشمس شاحبة صفراء. هل تتذكرين؟ وفي صباح أحد الأيام، قمنا برحلة في البحيرة في زورق. وهنا عانقتني لأول مرة.

أحاطها بذراعه وهو يستعيد الذكرى لكنه لم يدر وجهه إليها.

ـ أشعر أن ذلك كان أهم جزء من حياتي، أتذكر كل شيء، أتذكر كل مرة التقينا فيها.. وأتذكر كل الأماكن التي قصدناها وليس ذلك فحسب بل أتذكر ما كنا نتحدث به وما كنت ترتدين.. وأتذكر أيضاً الأيام التي كنا فيها صغاراً. والأوقات التي مرت من دون أن أراك فيها بعد المشاجرة التي وقعت بين أهلنا. ثم أتذكر الوقت الذي كبرتِ فيه فجأة. وكنتِ.. وكنت

جميلة جداً. وأنا. . .

قاطعته ايزوبيل بهدوء: كنت عائداً آنذاك من المحطة، وكنتُ في الخارج بمفردي أتنزه مع كلب أمي العجوز. . هل تتذكر ذلك؟

ابتسم يوليوس: كلب صغير مرقّط بالأسود والأبيض. آه! أجل! توقفت ودعوتك إلى مرافقتي في نزهة، فقلتِ إنك تتمشين نحو المستنقعات. فأجبتك سآخذكِ معي إلى هناك.

- ورحنا نتمشّى هناك وبقينا نتمشى عدة ساعات. كنا نسير ونتحدث أما الكلب فكان يطارد الأرانب. ثم أرجعتني إلى المنزل وتوقفت في آخر الممر الضيق فقلتُ لك أخاف أن يراني أحد معك. وشعرت. . . اوه! يوليوس! شعرت بالسعادة والإثارة والحيوية وبالخوف أيضاً لأنني لم أتصور أن شعورك مثل شعوري. فكرت أنك ستذهب وأنني لن أراك مرة ثانية. عندئذ أدرت وجهك نحوي وقلت لي: أريد أن أراك مرة ثانية. فتوقف قلبي عن الخفقان فأجبتك: وأنا أريد رؤيتك مرة أخرى أيضاً. هل ترى؟ أتذكر كل شيء الآن.

تنهد يوليوس قليلاً وغمرها بذراعيه ونظر إلى وجهها: حبيبتي! اوه! حبيبتي هل تدركين الآن؟ هل تفهمين كم كان ذلك صعباً ومؤلماً علي؟ كنت أتذكر كل ذلك، كل التفاصيل بدقة. . أتفهمين مدى العذاب الذي كنت أعيش فيه؟

انقطع صوته ورأت الألم الحالك في عينيه.

- بعد ذلك، رأيتك. رأيتك مرة ثانية بعد خمس سنوات من الجحيم، فوجدتك لا تتذكرين شيئاً. شعرت كأنني أُطعن بحربة في قلبي. كنت متأكداً أنك تكذبين. . لم أدر لماذا ولكنني لم أتصورك قادرة على نسيان كل ما كان بيننا. . رحت أفكر وأقول لنفسي: يجب أن يكون هناك سبب لهذا التصرف، عندما ستكونين معي في شقتي فستعرفين بأنك لم تنسي شيئاً. .

توقف: ولكنك لم تقولي شيئاً، ولم أتلق أية إشارة، أو أي ذرّة من التعارف. رحت تحدثيني عن يوليوس الذي مات والذي كان غريباً بالنسبة

لك. وعندما سألتك إذا كان لهذا الرجل الذي تتكلمين عنه زوجة ولم أحظَ بأي جواب شعرت أنني إنسان ميت. ثم عانقتك. . . كان علي معانقتك. يا الله! لم أرغب قط في أي شيء أكثر من ذلك. وكنت متأكداً أنك عندئذ. . . ستبادلينني عناقي كما كنتِ تفعلين سابقاً وتناديني يوليوس، و. . .

توقف لحظة فرأت عينيه تتجهمان من اليأس.

- وعندما لم تفعلي ذلك شعرت بالألم والغضب، فقلت هذا شيء فظيع لا يمكن مسامحته. وجلّ ما كنت أفكر فيه آنذاك هو الرغبة في إيلامك أيضاً. . آه! حبيبتي هل تفهمينني؟ هل ستسامحينني؟

- يوليوس! أحبكَ. . . لا تقل ذلك فأنت لم تفعل أي شيء لأسامحك عليه.

أدارت وجهها نحوه بحب وحنان وهي تضغط بيدها على يده، وهو يحني رأسه.

- ألا ترى؟ أنا أتذكر والحقيقة أن جزءاً مني كان يتذكر. وأنت تحمل لي معطفي وعندما قلتَ لي الأشياء التي سبق أن قلتها لي في الماضي، أعطيتك نفس الأجوبة من دون أي تفكير وأي معرفة. . ألا ترى ذلك يوليوس؟ كان هناك طوال الوقت شيئاً يجمعنا فكل الحب الذي تشعر به كان هناك كاملاً، في مكان ما، من فكري وقلبي. . . والآن. . . الآن هو هنا بكامله. أقدر أن أراه مرة ثانية، لا أشعر به فقط، أو أؤمن به، أو أحلم به، بل أراه أيضاً من جديد.

توقفت وأدارت وجهه نحوها برقة لكي ترى عينيه اللتين ما يزال فيهما بعض الشك وبعض الألم فشعرت بهدوء سعيد حقيقي، وبإحساس كبير بالقوة لأنها علمت الآن أن لديها القدرة لتجعل هذا الألم يختفي.

- يوليوس. . . هل تصدقني وتعرف أني على حق؟ انظر إلي. هل ترى؟ الأبواب انفتحت، والستائر رُميت إلى الوراء والنوافذ المُوصدة رُفعت هي وكل تلك الصور السلبية. أتذكر وأعرف.

ضغطت على يده بقوة وتابعت بصوت خافت: دخلنا يوماً إلى هنا،

كانت الأشجار ذات الرائحة العطرة مزهرة وكان الضوء شاحباً، وكان هناك بجعة واحدة في البحيرة، بجعة واحدة، يوليوس. تماماً كما حدث يوم بكيتُ في ذلك المطعم وأعطيتني كتفك لأبكي عليها. في ذاك المطعم كان هناك أيضاً بجعة واحدة. وجلسنا هنا وراقبناها بصمت، وعندئذ قلت لي: «أحبك ايزوبيل»، تماماً بكل بساطة من دون مقدمات... لم تمهد لذلك.

- هل تعنين أنه كان من المفروض أن أمهّد؟

ضحكت برقة فرأت الضوء يعود إلى عينيه.

- لا، ما فعلته كان صحيحاً وصائباً. كل شيء كان... أنت عرفته وأنا عرفته وبعد ذلك... وبعد ذلك.. عانقتك.

جذبها إليه بعطف ثم أضاف: «لمدة طويلة، كما أذكر. وآنذاك...».

رفع يديه بلطف وأمسك خصلة من شعرها كانت قد سقطت على جبينها وابتسم ثم قال: «طبعاً كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أتزوج بك.. عرفت ذلك وأردته».

قاطعته ايزوبيل بلطف: أعرف ماذا كنت تريد، وكنت أريده أنا أيضاً. وماذا حصل بعد ذلك؟

- أجل، ما حدث بعد ذلك هو أنني قلت لك أحبكِ.

- ظننتك نسيت هذا الجزء.

- اوه! لا، حبيبتي اوه، لا، لم أنس.

ثم أحنى رأسه وعانقها.

في تلك الليلة دارت بينهما مشاجرة ضاحكة... قال يوليوس إن ايزوبيل لا تزال تفتقر إلى القوة اللازمة لتنهض، وإن من الأفضل أن يجلب لها العشاء على صينية إلى غرفتها، وأنه سيتناول الطعام معها هناك، ثم يتحدثان قليلاً، وبعد ذلك يجب أن تنام وتستريح. فقالت ايزوبيل: إنها بألف خير وبكامل قوتها، ولا نية لها أن تلعب دور المريضة بعد الآن، وإنها ستتناول طعام العشاء معه في الطابق السفلي. أخيراً وافق يوليوس. أخذا يتشاجران بهدوء، وأخيراً تفاجأت ايزوبيل عندما غمرها يوليوس بذراعيه

ونظر إليها بقلق. فقالت له: «يوليوس... هل أنت قلق علي؟ حبيبي لا تقلق أنا بألف خير».

غطى وجهه في عنقها: «اوه! الهي! أريد ذلك كثيراً. حبيبتي! أريدك سليمة وقوية، أريد... أن أحملكِ كل ليلة بين ذراعي، وأريد...».

انقطع صوته وتردد ثم ابتعد قليلاً: أريدكِ أن تحملي طفلنا، أريد أن أمسكك هكذا وأشعر أنه يتحرك في أحشائك و...

أجابته وهي تغمره بذراعيها: اوه! يوليوس، أريد ذلك أيضاً قريباً، أنا متأكدة من ذلك.

بعد ذلك، أمسك يديها وقال إن عليهما الآن النزول لتناول طعام العشاء.

استعدت السيدة ديرنغ للمناسبة، فأعدت لهما عيداً. تناولا الطعام بهدوء وهناء.

أمسك يوليوس يدها وهما جالسان أمام النار... ابتسم وقال لها:

- السيدة ديرنغ سعيدة جداً الآن، صعب عليها أن تكذب خاصة لأنها متعلقة بك كثيراً. شرحت لها الوضع وتناقشت معها حتى رضيت بذلك التضليل. احتجت إلى عدة ساعات حتى أقنعتها إذ لم يكن باستطاعتها أن تصدق أنك نسيتِ كل شيء كما لم يكن باستطاعتي أيضاً تصديق ذلك. كنت أعيش على أعصابي طوال الوقت الذي كنا فيه هنا، فقد خشيت أن يصدر عن السيدة ديرنغ أي خطأ أو أي زلة لسان. لا يمكنكِ يا عزيزتي أن تتصوري ما أفظع أن تعجز هكذا عن إخبارك الحقيقة بينما كنت أريد إخبارك في لحظة من كل يوم.

أجابته ايزوبيل: «أخبرتني ذلك تقريباً ذات مرة، في مراكش عندما أرجعت إلي الخاتم».

- كلفني ذلك جهداً فوق قدرة الإنسان. أجل أخبرتكِ تقريباً آنذاك، حاولت إخبارك بطريقة أخرى.. عندما أخذت يدك و... هل تتذكرين؟

- أجل أتذكر.

ـ «علامتنا» قال ذلك وهو ينظر إلى النار بصمت. فقالت له ايزوبيل فجأة:

ـ اوه! يوليوس، أخبرني ماذا حدث بالضبط لك، ماذا فعلت؟ وماذا فكرتَ؟ أريد أن أعرف... أريدك أن تخبرني. قلت إنك تكرهني، تكره المرأة التي حطمت حياتك وإنك إذا التقيت بها مرة ثانية ستحطمها. هل كنت تعني ذلك؟ هل كنت تشعر بذلك؟

بعد صمت قصير أجابها يوليوس وهو ينظر إلى النار في المدفأة بصوت خافت: أقنعت نفسي بذلك. كرهت بالحقيقة زوج أمك، وظللت أخطط طوال خمس سنوات، حسناً فلنقل إنني كنت أنوي الانتقام. عندما تعيشين من دون أمل فهكذا كانت حياتي مدة خمس سنوات يصبح الانتقام دافعاً مساعداً ولكنه بالمقابل يأكلكِ ويحطمكِ.

ـ هل تعني أنك فكرت في تحطيم زوج أمي؟

ـ في وقت ما أجل. لقد حطم حياة عدة أشخاص بسبب أنانيته، أمك ووالدي اللذان كان بإمكانهما أن يكونا سعيدين. لكن أمك كانت خائفة، بالنتيجة قاما بالعمل المناسب لكن كل واحد منهما كان تعساً ماعدا زوج أمك. هكذا... لم يكن ذلك من باب الصدفة أن يرضى مصرفي بتمديد اعتماده. كنا متأكدين أنه يسعى إلى تحطيم نفسه ولو استمع إلى نصيحة محاميه في ذلك الوقت لكان باستطاعته أن ينجو ولتحاشى الإفلاس، لكنه لم يرض.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك قررت أن أحطمك أنتِ أيضاً إذا استطعت. انتظرت الفرصة المناسبة فلما علمت أن زوج أمك مات وأنه لم يترك أي شيء وأنني أمتلك المنزل الذي تعيشين فيه وكل شيء، حتى الملابس التي ترتدينها. شعرت بالفرح. قررت أن أدخل إلى تلك الغرفة بعد المأتم وأجابهكِ بالكذب الذي تعيشين فيه. وكنت أتوقع أن تتعرفي إلي حالاً.. كنت أنتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة. وبعدئذ..

توقف.. ونظر إلى عينيها: وبعد ذلك دخلت إلى تلك الغرفة وكنتِ هناك، أنتِ زوجتي. ولكن الأمور لم تجر كما خططت لها. كان هناك عنصر لم آخذه بعين الاعتبار ولم أنتبه له. عندما دخلتُ إلى تلك الغرفة ونظرت إليكِ...

تنهد فشعرت ايزوبيل بالتوتر في يده يسترخي: أحببتكِ تماماً كما أحببتكِ دائماً، بقوة أكثر من أي وقت. هكذا انتظرت خمس سنوات وأنا أخطط ثم وجدت نفسي عاجزاً عن تنفيذ الخطة. كان أسهل علي أن أقطع يدي، على أن أؤذيك بأي شكل من الأشكال. كنت كذلك دائماً وسأبقى هكذا إلى الأبد. وهكذا جربت بعناء أن أحمل نفسي على كرهكِ فذكّرت نفسي بما قد فعلتِ. فكرت في ادموند، وفي الأشياء التي حكتها لي بوبي عنكِ. كما اعتقدت أنك كذبت على زوج أمك وعلى البوليس، فأقسمت أنني هذه المرة لن أصدقك ولن أقدر أن أفعل ذلك.

رفع يده على وجهها وأمسك ذقنها: حبيبتي. كان ذلك مستحيلاً. نظرتُ إلى عينيك، لمستك فشعرت بالضياع. تماماً كما كان يحدث دائماً.

ثم قبل جبينها برقة، وتابع ببطء: احتقرت وكرهت نفسي بسبب ما فكرت وما فعلت، لكن هذه هي الحقيقة. هل تصدقينني؟

ـ أجل أصدقك.

أخذت ايزوبيل يده ورفعتها نحو شفتيها وقبلتها وأحنت رأسها فالحب الذي تشعر به نحوه هو الحب الذي لا مكان فيه للاعتذار أو المناقشة ولا للهرب.. ذلك كان يوليوس وهي تحبه من أجل ذلك.

غمرها يوليوس بين ذراعيه ووضع خده على خدها وقال: تلك الليلة كانت كحلم مزعج، لم أستطع أن أتخلص منها.. يومذاك عدت إلى هنا سعيداً، ولكنني لم أجدك.. رحت أفتش عنك ففي بادىء الأمر لم أكن مضطرباً. ولكن عندما لم أستطع أن أجدك في أي مكان بدأت أشعر بالخوف ورجعت إلى غرفة النوم ووجدت الخاتم. لا ملاحظة ولا شيء، لم أستطع أن أصدق فشعرت بالشلل ووقفت هناك أنظر إلى الخاتم وأقلبه في يدي وأحاول

أن أحزر ماذا يعني ذلك وأين يمكن أن تكوني قد ذهبتِ؟ عندئذ فكرت أنك ذهبتِ حتماً إلى منزل زوج أمك، أو ربما عرف بوجودك واتصل بك هاتفياً... لم أعد أدري بما أفكر. ركضت إلى الخارج فلم أجد السيارة عندئذ تأكدت أنك هناك. كنت خائفاً جداً. ركضت إلى المرآب وأخذت سيارة أخرى. وحاولت أن أقود مباشرة في نفس الاتجاه، فوصل ادموند الذي كان عاجزاً تقريباً عن المشي.. كان مصدوماً، وجهه مجروح بزجاج السيارة وكانت ثيابه ملطخة بالدم.. ففكرت أنه ثمل ثم راح يتكلم عنكِ وعنه. أقسم... لا أريد التكلم عن ذلك. بإمكانك تصور نوع تلك الكلمات التي تفوه بها. قال إنكما حبيبان وإنك ذهبت معي لتثيري غيرته وإنك أدركت بسرعة خطأكِ وجئتِ من لندن إلى هنا لتكوني معه. وإنكِ عندما خرجتُ من المنزل، اتصلت به هاتفياً وطلبت منه أن يأتي ويبعدك عني ثم قال إن الحادث وقع وهو يعانقك.

توقف، فشعرت من خلال صوته الجهد المؤلم الذي كان يقوم به لمتابعة حديثه.

- ايزوبيل، لا أدري في ما فكرت آنذاك. لا أدري بالحقيقة إذا كنت قادراً على التفكير. شعرت بالمرض والخوف والألم. أخبرني ادموند أنكِ انزلقت خارج السيارة وأنه لا يدري إذا تأذيت أم لا. فكرت يا عزيزتي أنك لاقيتِ حتفكِ، فتركته هناك وقدت السيارة مرعوباً إلى مكان الحادث. عندما وصلت كانت سيارة الإسعاف قد أخذتكِ بعيداً ولما سألت عنك لم يستطع أحد أن يخبرني إذا كنتِ على قيد الحياة.. ذهبت إلى المستشفى وهناك.. قابلتُ زوج أمك الذي قال إنك على قيد الحياة وإنك ستعيشين لكنك فقدتِ وعيكِ وإنه ليس باستطاعتي رؤيتك. بدا كأنه يهددني وقد رأيت ذلك في عينيه. وقف في عرض الباب ومنعني من الدخول وقال إنه سيمنعك من رؤيتي في أي حال وإنه سيرميني في السجن بسبب ما فعلت بابنته وإنكِ قد أخبرته قبل أن تفقدي وعيك أنني خطفتك واعتديت عليك وأنك طلبت مني أن أعيدك إلى المنزل. ثم قال: «كنت تقود السيارة، أنت يا

ابن الساقطة... أعرف أنك كنت تقود، فإيزوبيل أخبرتني بذلك ولينك لاقيت حتفك وبما أنك لم تمت فاذهب إلى الجحيم».

سمعت الغضب في نبرة صوته وكان يتنفس بصعوبة ويحاول تمالك نفسه. ثم قال: «أنت تعرفين الباقي. طلب مني ادموند أن أخلصه من هذه الورطة. فكرت أنك كنت تحاولين حمايته والتستر عنه ولأنني أحبك قررت أن أنفذ ما تريدينه بالضبط... قال لي إنه لا يرغب في رؤيتك بعد الآن ولا يريد رؤيتك بعد الذي فعلته بأخيه. لكنني كنت مجبراً على مساعدته، يجب أن يظل إلى جانب والدتنا التي كانت تعبده والتي إن علمت بما حصل معه ستموت من الحزن.. راح يتكلم ويتكلم، وأخيراً وافقت على مساعدته. فكرت أن هذا ما كنتِ تريدينه، فرضيت ولم أعد أفكر في العواقب. فأنا متُّ بالفعل.. هكذا كذبت... ذهبت إلى المحكمة. أنا الشاب الذي كان مؤمناً إيماناً صادقاً بالعدالة. وسارت الأمور من دون أي جهد. قلت لهم إنها سيارتي وإن الدماء الموجودة في السيارة من فئة دمي ففئة دمي كفئة دم ادموند وإنني قد خطفتك وهربت معك إلى شمالي افريقيا غصباً عنكِ، وحصل ما بيننا وأنا بحالة غضب شديد وأنك أردت العودة إلى المنزل، فأثبت بذلك ذنبي. لذا لم يأخذوني حتى إلى كرسي الشهادة وانتهت المحاكمة في ثلاثة أيام. وبعد ذلك ذهبت إلى السجن».

- اوه! يوليوس! هذا مريع جداً! هذا مريع.

ضغطت ايزوبيل بيدها على كتفه وساد الصمت بينهما بضع لحظات. ثم نظر يوليوس إليها بهدوء وتابع: حبيبتي. لا يهم ذلك. ولكن السجن لم يكن مشكلة بالنسبة إلي، فالسجن والقضبان الحديدية والطعام السيء كل ذلك لم يكن يعني لي شيئاً أمام السلاسل الحديدية التي كانت حول قلبي. فكرت أنك لم تحبيني قط، وأن كل ما حصل بيننا كان كذباً. تلك كانت قضيتي وجلستي ومحاكمتي، ذلك كان سجني وجحيمي. وقد ذهب كل شيء الآن ولكن عندما أفكر في الماضي أشعر بالحزن والألم فأشعر بالشفقة عليك وعلى ادموند وعلى حياته التي قضاها يتناول المخدرات. ولكن أهم

شيء الآن هو أننا عدنا إلى بعضنا بعضاً وأنني أحبكِ، وهذا هو الشيء الوحيد الجيد الذي استخلصته من خلال هذه المشكلة. بطريقة أخرى: أعتقد أن ذلك أعجوبة، أعجوبتنا. هذا كل شيء. وكل الذي أتمناه الآن هو أن أجعلكِ سعيدة وأنسى الماضي. وأعتقد أنه بطريقة ما قد حصلنا على مستقبل مشترك ومستقبل طويل أليس كذلك؟

لم تجبه ايزوبيل بل عانقته وأدركت أنه يفهم جوابها من عناقها. . ابتعد عنها قليلاً، أمسك يدها وقال لها: حبيبتي الوقت متأخر جداً يجب أن تستريحي وتنامي.

حاول إمساكها ومساعدتها على السير نحو الباب ولكن ايزوبيل توقفت فجأة ورفعت إليه عينيها الجميلتين البريئتين وقالت له: هناك شيء آخر أريد أن أعرفه.

ـ أجل.

ـ أردت أن أسألك عنه من قبل، ولكن الأمور تعقدت وحدثت أشياء كثيرة.

ثم ابتسمت ورفعت يديها إلى عينيه وقالت: عيناك! عندما جئتَ إلى منزل زوج أمي، وعندما ذهبت إلى شقتك في لندن وخلال سفرنا ووجودنا في مراكش. كانت عيناك مختلفتين، لم تكونا رماديتين، يوليوس.

ابتسم وقال لها: كان ذلك بسيطاً جداً، كنت أضع عدسات لاصقة فهي تعطي ظلالاً وتغير لون عيني. وضعتها لعدة سنوات ولم أنزعها قط سوى في تلك الليلة التي كنا فيها هنا. . عندما أخبرتني عن الأحلام التي كانت تراودك، فكرت أن أنتظر قليلاً حتى أنزعها وبعد عودتنا من مراكش قررت أنه حان الوقت لتري عينيّ.

نظرت إليه ايزوبيل بحنان: لاحظت ذلك في مراكش، لذلك كان من السهل علي أن أتناسى الماضي لأنك كنت معي، لأن يوليوس كان معي وقد رجع إلي. فكرت لا شعورياً أنني عرفت ذلك.

أجابها وهو متعجب: هل عرفتِ ذلك؟ حسناً، إذا كنت تريدين

الحقيقة، فأنا لا أصدق أبداً. . اعتقدت آنذاك أنك قد نسيتِ يوليوس كلياً وأنكِ كنتِ سعيدة جداً مع اليوت ريتشاردسون الرجل المصرفي البارد، فشعرت بالغيرة منه وأحسست بالانقباض.

أجابت ايزوبيل وهي تبتسم: «لا معنى لذلك» فضحك يوليوس:

ـ أعتقد أن ذلك يكفي لهذه الليلة. تعالي إلى الطابق العلوي.

وحاول أن يسير معها في الممر ثم توقف متردداً. ثم قال لها أخيراً:

ـ أتشعرين حقاً أنك بخير؟

ضحكت ايزوبيل وأجابته: أخبرتك أنني بألف خير وأنني تعافيت.

عرف أنه ليس من الضروري متابعة النقاش وأن هذه الكلمات تكفي فضغط بيديه حول خصرها. وقال لها: في هذه الحالة سنصعد إلى غرفتي.

أمسكها بيده ومشى معها بضع خطوات ثم توقف وحملها بين ذراعيه ثم قال لها: أريد أن أتأكد هذه الليلة إذا كنتِ فعلاً ستعرفين من معك يوليوس أم اليوت. وإذا ما أخطأتِ. . .

توقف لحظة ونظر إلى عينيها وهو يبتسم فأجابته فوراً: أجل، يوليوس.

ـ إذن سأتأكد من ذلك مجدداً.

أحنى رأسه وعانقها: وسوف أواصل ذلك حتى تصبحي متأكدة تماماً وكلياً.

* * *